المنار ١٣١٥

فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم اولو الالباب

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا اولو الالباب

قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوى و « منارا » كمنار الطريق

(مصر الاربعاء ٢٩ صفر ١٣٢٦ — أول إبريل (نيسان) سنة ١٩٠٨)

كتاب مصر الحديثة للورد كرومر

نظرة إجمالية في الكتاب

أقام لورد كرومر في مصر نحو ربع قرن متصرفا بنفوذ الحاكم المطلق فعرف من أحوال حكومتها وسيرها الاجتماعي ما يعز على غيره من حكام البلاد أو نزلائها من الاوربيين ان يعرفوه ثم أودع زبدة ما عرفه في كتاب يدخل في ثلاثة مجلدات طُبع اثنان منها وأوصى هو بطبع الثالث عقب موته لانه خاص بحال مصر في عهد الامير الحالّ عباس باشا الثاني والظاهر أنه أشد الاجزاء وَطأً وأثقل قيلا على مصر والمصريين على ان الجزء الثاني لا تستخف وطأته ، بل لا تطاق كلته ، فهو قد حكم

لكل الشعوب التي تتبوأ ارض مصر وعليها ولكنه حكم على المصريين لا لهم ولم يحكم عليهم بالمساواة بل فضل القبط على المسلمين تفضيلا من حيث دينهم وما فيه من المرونة التي تساعدهم على مجاراة المدينة مالا يساعد الاسلام أهله على زعمه

ولم يكتف بالحكم في قضايا الشعوب من حيث هو حاكم سياسي اجتماعي بل حكم ايضاً في قضايا الرجال المشهورين الذين عرفهم من بعض الوجوه وكان حكمه عليهم من غير الوجه الذي عرفهم به اذ حكم على مطويات العقائد ومكنونات الضمائر وخطرات القلوب

ولم يرضه هذا حتى رفع نفسه الى مستوى الحكم على الاسلام من حيث هو دين ومن حيث هو شريعة ونظام اجتماعي فحكم من الحيثية الاولى له وعليه ومن الحيثية الثانية عليه لا له وانتقل من الحكم عليه الى الحكم على أهله عامة حتى في مستقبل أمرهم فكان حكمه هذا صاخة تصخ المسامع وقارعة تصدع القلوب بل هو عبرة للمعتبرين وموعظة للمصريين وسائر المسلمين

رأيت حديث الناس في هذا الكتاب يدور على قطبين (أحدهما) الحكم على شعور الكاتب حينما دون حكمه على المصريين وعلى الاسلام والمسلمين فما رأيت بينهم خلافا في كونه كتب بمداد الحقد والحنق وقلم الحفيظة والانتقام من المصريين بما فوقوا اليه من سهامهم ، وصوبوا اليه من اسنة اقلامهم، في وقت مفارقته لديارهم ، وهو وقت ضاق فيه ذلك الصدر الواسع عن احتمال الانتقاد ، بله الشماتة والازراء ، على انه قد ظهر ضيق صدر اللورد قبل ذلك في تقريره الاخير، ثم في خطبته التي خطبها قبيل الرحيل،

هذا وأما القطب الثاني لحديث الناس في الكتاب فهو غرضه منه وقد رأيت أهل الفهم والذكاء يقولون من غير مواطأة ولا تقليد ان غاية اللورد من هذا الكتاب هي ان يستل من نفوس أحرار قومه فكرة توقيت الاحتلال ، والخروج من مصر في يوم من الايام ، ويقنعهم ويقنع أوربا معهم بأن لا ضمان لحفظ مصالح الاوربيين في مصر بل ولا مصالح المصريين الا بقاء الانكليز في مصر لان المصري شديد التمسك بدينه الذي لا يتفق مع المدنية فان هو تركه واتبع هذه المدنية كما يحب الاوربيون ويبغون كانت مدنيته تقليدية لا حقيقية وكان بذلك شرا من المسلم المتدين وأشد عداوة للاوربي وللمسيحي ولو غير أوربي

ويرون ان تصريحه بعدم استحسان ضم مصر الى املاك انكلترا وما أظهره من الميل الى اعدادهم للاستقلال هو من التمويه وذر الرماد في العيون وإلهاء المصريين بالاماني والاحلام. وأصحاب هذا القول غافلون عن طرق الاستعمار الجديدة ومنها حكم البلاد باسم أهلها والرضى بالسلطة الفعلية بديلا من السلطة القولية وقد سبق لنا بيان لهذه الطرق في السنة الاولى من المنار وفي غيرها أيضاً

هذه صفوة الآراء التي دارت بين الناس في شعور مؤلف كتاب مصر الحديثة وفكره المستولي عليه عند الكتابة وفي غايته منه وذلك ضرب من ضروب انتقاد المصنفات مطروق الابواب ، معهود عند الكتاب ،

ومما ينتقد على هذا الكتاب وهو من أصول الانتقاد استنباط القواعد الكلية، من شواذ الحوادث الجزئية ، ولم يسلم اللورد من ذلك فانه في المقابلة بين عقل الغربي والشرقي اورد الامثلة لعقل الشرقي الضعيف

التنظيم والادراك « لاعتقاده بالقضاء والقدر ورضوخه لكل سلطة تتولى أموره » فانه بعد ان دعم الحكم على عقل الشرقي بهاتين العلتين مثل للحكم الكلي العام بما نص ترجمته

(قال اللورد) «حدث أكثر من مرة ان المفتحجي في مصلحة الحديد المصرية حول الخط والقطار عليه لم يمر الانصفه الى الخط الآخر فادى ذلك الى انقلاب القطار وحدث ايضا ان سائق قطار نسي احيانا اي مفتاح يجب ان يحرك لكي يوقف القطار وحدث مرة ان عمال السكة الحديدية قتلوا لانهم ناموا بعد ان وضعوا رءوسهم على الخط الحديدي وانما فعلوا ذلك ليثقوا بأنهم يستيقظون على صوت القطار الآتي »

ونقول ان أمثال هذه الجزئيات تقع في أوربا وفي جميع البلاد من جميع الشعوب وناهيك بالطبقة الدنيا من العمال فان ذكي الفطرة عالي النفس لا يرضى لنفسه بأن يكون من أحقر عمال سكة الحديد، وناهيك بالمبتدئين من أهل هذه المهنة بها والغالب ان يكون أصحاب ذلك الشذوذ الذي ذكره منهم . فأمثال هؤلاء لا يصح ان يكون مناط المقابلة بين الشعوب في ارتقاء العقل وملكة النظام فيه . وانما ينظر في حالهم من جهة النشاط في العمل والصبر عليه ولعله لو قابل بين فعلة الاوربيين وفعلة المصريين في هذه المزايا لما قدر ان يبخس المصريين حقهم، وان ظن ان القضاء والقدر قد فتك باستعدادهم لكل عمل !! ونسي ان أكثر المستخدمين في سكة الحديد من القبط الذين هم على شاكلته في عدم الايمان بالقضاء والقدر

واني أذكر له شيئاً من بلادة بعض الاوربيين وغفلتهم هو أبعد عن العقل والنظام مما صدر عن صغار فعلة السكة الحديدية في مصر ناقلا إياه عن

كتاب صفوة الاعتبار لصديقه الشيخ محمد بيرم الثقة العدل رحمه الله تعالى فانه كتب في الفصل الذي عقده لبيان عادات أهل فرنسا وصفاتهم مانصه:

« ومع ذلك (أي انتشار المعارف) فلا يزال في فرنسا خلق كثير على السذاجة والجهل . ودونك حكاية ظريفة تقيس عليها مايقرب منها، ففي سنة ۱۲۹۷ هـ ۱۸۸۰ م كان أحد أصحاب العمل باليد مشتغلا جهة « باريس » وكان له ابن مشتغل جهة « بردو » فلم يوفر الابن من كسبه مايشتري به حذاء فأرسل الى أبيه يشتكي له القل ويطلب منه شراء حذاء له فاشتراه له وحمله في الطريق وهو مفكر في كيفية إيصاله اليه فبينما هو ماش اذ مر محاذياً للسلك الكهربائي فقال هذا أيسر طريق ! ! إني أحمله الحذاء وهو يوصله لابني . فجاء الى عود السلك وعلق فيه الحذاء وأسرّ الى العود بقوله « أوصل هذا لابني فلان في المكان الفلاني » وذهب مسروراً باطلاعه على مسلك سهل بلا مصروف . ثم مر من غد متفقداً ما فعل السلك بالحذاء فوجد في ذلك المكان حذاء عتيقا أفناه اللبس ففرح وقال « ان ابني لعاقل حيث أرسل لي القديم لاستعين به على ثمن الجديد » فانظر الى هذه البلاهة التي لو صدرت من أحد المشرقيين لشنعوا بجميع الجنس بأنه وحشي بعيد عن المعارف وتهذيب الاخلاق » (وقد صدّق ظنّه صديقه لورد كرومر فانه شنع على الشرقيين كافة بما وقع من بعض فعلة سكة الحديد بمصر)

(ثم قال بيرم) «واعلم ان مثل هذا الرجل كثير سيما في القرى الصغيرة والجبال بل وفي أهل المدن كثير ممن يعتقد بالخرافات الباطلة ويعتقد التأثير لا حجار وجمادات، ويتشاءم بالاوقات، فقد رأيت في كثير من بلدانهم

وبلدان الطليان وكذا الانكليز طاقات في حيطان فيها منارات توقد ليلا بالزيت أو بالشمع العسلي تقربا الى بعض أوليائهم أو الجن معتقدين حلول المتقرب اليه بتلك الطاقة . ولا ينورونها بغير ماذكر من الانواع لان القسوس يقولون لهم ان شمع الشحم أو الغاز من البدع التي لا يتقرب بها. وكذلك يطلبون البخت وقضاء الحاجات من جمادات أو أماكن اعتقاد حلول ارواح فيها . وقد ذكر من هذا النوع في كشف المخباعن فنون أوربا مايتعجب منه السامع مما ترى الاورباويين ومن تشكل بشكلهم وتباهى بتقليدهم يحملون عبئه على البلاد الاسلامية وحدها ويجعلونها سخرية وينزهون أوربا عن مثلها مع أنها حاوية لشبهها ولاشد منها، بل ربما أسند ذلك الجاهل او المتجاهل الى ديانتنا الشريفة وحاشا لله ان تؤدي أو ترشد لمثل ذلك بل انها هي المهذبة والمنقذة من غياهب الجهل الى نور المعارف الحاثة على العلم وفتح البصائر » اه بحروفه

هذا ما قاله عن اهل فرنسا وهم أسبق الاوربيين الى العلم والمدنية واذ كاهم أذهانا . على أنه قال ان الانكليز كذلك بل قال في كلامه من عادات الانكليز وصفاتهم مانصه :

« وأما أطوار الطبقة السفلى فهي أشنع مما مر ذكره في همج الفرانسيس سواء كان من جهة الاعتقاد أو من جهة السيرة والحركات فيتطيرون من أشياء كادت ان لاتحصى وينقادون الى السحرة والدجالين بما يخرج عن حد المعقول وكاد التعلم ان يكون عندهم مجهول الاسم فضلا عن المسمى سوى مايرطن لهم القسوس في الكنائس » الخ

أقول اما خرافات القبور والاولياء التي قال انهم يعيبون الاسلام

بمثلها وهو منها بريء فقد أخذها المسلمون عنهم وهم أخذوها عن اجدادهم أو مجاوريهم من الوثنيين فالاسلام والنصرانية الحقيقية بريئان منها وقد قال صلى الله عليه وسلم « لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع » قالوا يارسول الله اليهود والنصارى ؟ - قال « فمن ؟ » رواه الشيخان وغيرهما

وان تعجب فعجب مقارنته في هذا المقام بين الاوربي مطلقا والعامي المصري في الحساب فقد قال بعد ماتقدم ما ترجمته كما في المؤيد :

« وقارن أيضا بين تقدير الاوربي للحساب وبين المصري العامي الذي يشكل عليه إشكالا كاملا كل أمر يتعلق بالارقام أو الكمية فان عددا قليلا من عامة المصريين يعرفون عمرهم . فاذا سألت المصري عن عمر رجل متقدم في السن يكون جوابه غالبا « ان عمر الرجل مئة سنة » ويقول في نفسه ماذا يهم التدقيق في هذا الامر أو أي أمر آخر علمي »

قلت ان هذا من مواطن العجب لان المقارنة فيه بين الاوربي المتعلم والمصري العامي ولماذا لم يقارن في الحساب والارقام بين المتعلم من الفريقين ؟ لعله لانه يعلم ان المصريين من اقوى الشعوب استعداداً للبراعة في الحساب وسائر العلوم الرياضية وقد أراد الانكليز منذ بضع سنين ان يجعلوا ترقية المهندسين منهم على المهندسين من المصريين مبنيا على قاعدة عادلة لظنهم أن الانكليز اعلم وأبرع فامتحنوا الفريقين فاسفر الامتحان عن فوز المصريين وتخلف الانكليز عنهم وسكت الفريقان على ذلك الامتحان فلم يعلموا به الجرائد . اما الانكليز فلما هو ظاهر واما المصريون فلخوفهم ان يحنق عليهم رؤساؤهم وينتقموا منهم

ومما ينتقد عليه في كتابه تقليده لغير واحد من كتاب الاوربيين في

آرائهم في الاسلام وكان أجدر من كثير من أولئك الكاتبين بمعرفة حقيقة الاسلام لو أراد أن يعرفه وينصفه فانه عاش في مصر عمراً طويلا وعرف أشهر علمائها بل أشهر علماء الاسلام المعروفين في العالم كله الآن وناهيك بالاستاذ الامام وطول باعه في علوم الدين ورسوخه في فهم القرآن وهو الذي لم يكن يحتاج في مخاطبته إياه وفهمه عنه الى ترجمان كما كان يحتاج في مخاطبة غيره من شيوخ الازهر . ولكنه لم يكن يسأله عن أصول الاسلام وحكمه وأحكامه ولا الاستاذ الامام كان يبتدئه بشيء من ذلك وانما كان يقصد اليه لاجل الكلام في المسائل المصرية لاسيما المحاكم الشرعية . ومما ذكر لي عنه انه كان يذاكره مرة في اصلاح هذه المحاكم ومعارضة قاضي مصر وبعض المشايخ ومقلديهم في ذلك كما حصل في مجلس شورى القوانين وذكر اللورد كثرة شكوى الاهالي من الظلم وضياع الحقوق في هذه المحاكم ولما بين له الاستاذ الامام انه ليس في اصل الشرع شيء ينافي الاصلاح العدل قال له اللورد هل تصدق يا أستاذ انه يخطر في بالي ان شريعة قامت على أساسها مدنية عظيمة تكون غير عادلة ؟ كلا انني أعلم ان كل هذه المفاسد مسائل « اكليركية » اي من تقاليد المشايخ التي تشبه تقاليد رجال « الاكليروس » عند النصارى

أنقل هذا بالمعنى كما احفظه عن الاستاذ الامام واستطرد من ذلك الى انتقاد ما كتبه اللورد عنه ثم ألخص كلامه في الاسلام من حيث هو دين ومن حيث هو شريعة وأبين خطأه وخطله فيه وانتقل من ثم الى المقصد الاعظم وهو مستقبل الاسلام والمسلمين ومراد اللورد وامثاله من أساطين السياسة وامانيهم في ذلك وما يجب علينا من العبرة

والعمل في هذا المقام ، مع تعدد السبل واشتباه الاعلام ،

قول اللورد في الشيخ محمد عبده

لم يسلك اللورد مسلك اصحاب التراجم من المؤرخين فيذكر ما للرجال الذين ترجمهم من الصفات والمزايا وما عليهم من التقصير وانما ألمّ بذكر بعض كبار الرجال المشهورين الماما ولم ينظر الى أحد من المسلمين بعين الرضى كما نظر الى الشيخ محمد بيرم التونسي على أنه مدحه بشيء يراه هو مدحا ويراه جميع المسلمين ذما اذ قال فيه «علمه ذكاؤه الفطري ان النظامات التي تعلق بها أسلافه (يعني الشريعة التي جرى عليها المسلمون السابقون) لا بد أن تتلاشى اذا قابلتها المبادئ السامية المرقومة على راية الانكليزي !! رأى كل هذه الامور بعين الناقد البصير » وقال بعد ذلك ان مثله اذا ناقش المسيحي في الامور العامة يكون من النتيجة المحزنة أنه « يكتفي بندب مصير ذلك الدين الذي يحبه وذلك النظام المؤذي الذي اوجده دينه» ثم ذكر انه لا يوجد عند أمثال بيرم من خيار المسلمين طريقة قادرة على احياء الاسلام الذي هو في حالة الموت السياسي والاجتماعي !! ونحن نعلم فيما رأينا من مؤلفات الشيخ محمد بيرم وما سمعنا عنه ممن لقيه أنه كان متمسكا بهذا الفقه ويراه أحسن نظام ويعتقد انه مستمد من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فاذا كان مع ذلك يفضل عليه المبادئ والقوانين الانكليزية او يرى انه نظام مؤذ فكيف يكون راسخا ذلك الرسوخ في الاسلام ؟ أرى انه على اطرائه لبيرم في الدين قد ذمه من

حيث اراد مدحه ولم يعرف حقيقته الدينية كما هي ولا يرضي مريدي الشيخ محمد عبده ان يكون مثله مرضيا للورد في ذلك وان كانوا يعلمون انه لا يعد جميع هذا الفقه ولا اكثره من الدين . وانما نذكر الآن رأي اللورد في الاستاذ الامام في تقريره لسنة ١٩٠٥ ثم نشفعه برأيه في مصر الحديثة ونبين سبب الاختلاف بينهما

قوله فيه بتقرير سنة ١٩٠٥

اختطفت المنية في السنة الماضية رجلا مشهورا في الهيئة السياسية والاجتماعية بمصر أريد به الشيخ محمد عبده فأحببت أن أسطر هنا رأيي الراسخ في ذهني وهو ان مصر خسرت بموته قبل وقته خسارة عظيمة

لما أتيت مصر القاهرة سنة ١٨٨٣ كان الشيخ محمد عبده من المغضوب عليهم لانه كان من كبار الزعماء في الحركة العرابية . غير أن المغفور له الخديوي السابق صفح عنه طبقا لما اتصف به من الحلم وكرم الخلق فعين الشيخ بعد ذلك قاضياً في المحاكم الاهلية حيث قام بحق وظيفة القضاء مع الصدق والاستقامة وفي سنة ١٨٩٩ رقي الى منصب الافتاء الخطير الشأن فأصبحت مشورته ومعاونته في هذا المنصب ذات قيمة عظيمة ثمينة لتضلعه من علوم الشرع الاسلامي مع ما به من سعة العقل واستنارة الذهن واذكر مثالا على نفع عمله الفتوى التي أفتاها في ما اذا كان يحل للمسلمين تثمير أموالهم في صناديق التوفير فقد وجد لهم باباً به يحل لهم تثمير أموالهم فيها من غير أن يخالفوا الشرع الاسلامي في شيء

أما الفئة التي ينتمي الشيخ محمد عبده اليها من رجال الاصلاح في الاسلام فمعروفة في الهند أكثر مما هي معروفة في مصر ومنها قام الشيخ

الجليل السيد أحمد الشهير الذي أنشأ مدرسة كلية في عليكده بالهند منذ ثلاثين عاماً . والغاية العظمى التي يقصدها رجال هذه الفئة هي اصلاح عادات المسلمين القديمة من غير أن يزعزعوا أركان الدين الاسلامي أو يتركوا الشعائر التي لا تخلو من أساس ديني . فعملهم شاق وقضاؤه عسير لانهم يستهدفون دائما لسهام نقد الناقدين وطعن الطاعنين من الذين يخاص بعضهم النية في النقد ويقصد آخرون قضاء اغراضهم وحك حزازات في صدورهم فيتهمونهم بمخالفة الشرع وانتهاك حرمة الدين

أما مريدو الشيخ محمد عبده وأتباعه الصادقون فموصوفون بالذكاء والنجابة ولكنهم قليلون وهم بالنظر الى النهضة الملية بمنزلة الجيروندست في الثورة الفرنسوية فالمسلمون المتنطعون المحافظون على كل أمر قديم يرمونهم بالضلال والخروج عن الصراط المستقيم فلا يكاد يؤمل أنهم يستميلون هؤلاء المحافظين اليهم ويسيرون بهم في سبيلهم . والمسلمون الذين تفرنجوا ولم يبق فيهم من الاسلام غير الاسم مفصولون عنهم بهوة عظيمة . فهم وسط بين طرفين، وغرض انتقاد الفريقين من الجانبين، كما هي حال كل حزب سياسي متوسط بين حزبين آخرين، غير ان معارضة المحافظين لهم أشد وأهم من معارضة المصريين المتفرنجين اذ هؤلاء لا يكاد يسمع لهم صوت

ولا يدري الا الله مايكون من أمر هذه الفئة التي كان الشيخ محمد عبده شيخها وكبيرها فالزمان هو الذي يظهر ماذا كانت آراؤها تتخلل الهيئة الاجتماعية المصرية أولا . وعسى الهيئة الاجتماعية أن تقبل آراءها على توالي الايام اذ لا ريب عندي في أن السبيل القويم الذي أرشد اليه المرحوم الشيخ

محمد عبده هو السبيل. الذي يؤمل رجال الاصلاح من المسلمين الخير منه لبني ملتهم اذا ساروا فيه . فأتباع الشيخ حقيقون بكل ميل وعطف وتنشيط من الاوربيين . ولعلهم يجدون بعض التنشيط من تلقي قولا لرجل من اهل دينهم وصف فيه المعارضة التي لقيتها مدرسة عليكده الكلية المذكورة آنفاً والطريقة التي تغلبوا بها على تلك المعارضة» وههنا ذكر عبارة عن كاتب هندي اسمه السيد محمود تضاهي عبارته في المقدار

ومما كتب في اواخر الفصل الذي يتكلم فيه عن المحاكم الشرعية ما ترجمته

« هذا واني أوافق السر ملكولم مكاريث على ماقال عن الضربة الثقيلة التي أصابت الاصلاح من هذا القبيل بموت المرحوم الشيخ محمد عبده فقد أشرت الى خدمات ذلك الرجل الجليل في فصل آخر من هذا التقرير وأعود فابسط الرجاء أيضاً ان الذين كانوا يشاركونه في آرائه لاتخور عزائمهم بفقده بل يظهرون احترامهم له كراه أحسن اظهار بترقية المقاصد التي كان يرمي اليها في حياته » اه

اما ماقاله السر ملكولم مكاريث وصرح به اللورد بموافقته عليه فهذا نص ترجمته

قول المستشار القضائي في الشيخ محمد عبده

« ولا يسعني ختم ملاحظاتي على سير المحاكم الشرعية في العام الماضي بغير أن أتكلم عن وفاة مفتي الديار المصرية الجليل المرحوم الشيخ محمد عبده في شهر يوليه الفائت وان أبدي شديد أسفي على الخسارة العظيمة التي أصابت هذه النظارة بفقده فقد كان خير مرشد لنا في كل ما يتعلق

بالشريعة الاسلامية والمحاكم الشرعية وكنا نرجع اليه كثيراً للتزود من صائب آرائه والاستعانة بمساعدته الثمينة وكانت آراؤه على الدوام في المسائل الدينية أو الشبيهة بالدينية سديدة صادرة عن سعة في الفكر كثيراً ما كانت خير معوان لهذه النظارة في عملها . وفوق ذلك فقد قام لنا بخدم جزيلة لا تقدر في مجلس شورى القوانين في معظم ما أحدثناه أخيراً من الاصلاحات المتعلقة بالمواد الجنائية وغيرها من الاصلاحات القضائية اذ كان يشرح للمجلس آراء النظارة ونياتها ويناضل عنها ويبحث عن حل يرضي الفريقين كلما اقتضى الحال ذلك وانه ليصعب تعويض ما خسرناه بموته نظراً لسمو مداركه وسعة اطلاعه وميله لكل ضروب الاصلاح والخبرة الخصوصية التي اكتسبها أثناء توظفه في محكمة الاستئناف وسياحاته الى مدن أوربا ومعاهد العلم . وكانت النظارة تريد أن تكل اليه أمر تنظيم مدرسة القضاة الشرعيين المزمع انشاؤها ومراقبتها مراقبة فعلية . اما الآن فانه يتعذر وجود احد غيره حائز للصفات اللازمة للقيام بهذه المهمة ولو بدرجة تقرب من درجته فلكل هذه الاسباب اخشى ان نظارة الحقانية ستظل زمناً طويلا تشعر بخسارتها بفقده » اه كلام المستشار

قول اللورد فيه بكتاب مصر الحديثة

أما الشيخ محمد عبده فكان عالما من طراز يفضل كثيراً طراز اخوانه الذين أشرت اليهم (كالسادات والبكري) وكان أحد زعماء الفتنة العرابية فلما جئت مصر سنة ١٨٨٣ كان مغضوبا عليه ولكن الخديوي توفيق عفا عنه بما فطر عليه من مكارم الاخلاق وانقياداً لتشديد الانكليز عليه في ذلك وعينه قاضياً فأحسن العمل وأدى الامانة حقها . وكان متوسعاً في آرائه وعلى علم ونباهة فلم

ينكر المساوئ الناشئة في الحكومات الشرقية وعرف انه لابد من الاستعانة بالاوروبيين للاصلاح الا انه لم يكن من عداد المصريين المتفرنجين وكان يقول انهم لم يحسنوا تقليد ماحاولوا تقليده من الاخلاق الاوربية وكان عدوا للخديويين والباشاوات وأريد بذلك انه لو عثر على باشاوات صالحين لما أعرض عنهم ولا عارضهم ولكنه لم يوفق الا الى عدد قليل من خيارهم مع اختباره الطويل . وحقيقة الامر ان الرجل كان مفطورا على الخيال ويرى آراء لا يمكن الجري عليها الا انه كان مع ذلك مصريا وطنيا حقيقيا ومن مصلحة الوطنية المصرية ان يكون أمثاله كثارا ولكن اذا نظرنا الى نسيج محمد عبده والذين يلمون تعاليمه من جهة امكان اتخاذهم ساسة للمستقبل نجد ان هناك بعض اوجه الضعف وقد قال المستر ستانلي لاين بول ان المسلم من الطبقة العليا لابد ان يكون أحد اثنين « اما متعصب او ملحد في سره » فمثل هذه الحيرة على شكل مختلف قد أوجدت عقبات في سبيل المسيحيين الذين يؤمنون بحرفية تعاليم المسيح دون معناها أنها عقبات أعظم للمسلم الاصيل الذي يبذل عناية كلية بحرفية تعليم دينه دون معناها وأخشى ان يكون صديقي محمد عبده في حقيقة امره « لا أدريا » ولو انه يستاء من هذه النسبة لو نسبت اليه . وكان معاشروه ومخالطوه يسلمون بمقدرته ولكنهم كانوا يرمقونه شزرا ويقولون انه « فيلسوف » وكل من يدرس الفلسفة اي كل من يدرك الفرق بين القرن السابع والقرن العشرين هو في أعين المتمسكين بالقديم سائر الى الهلاك لامحالة . هذا وان أهمية محمد عبده السياسية هي في أنه اسس مدرسة فكرية في مصر على مثال ما أسس في الهند سيد احمد

منشئ كلية عليكرة وغاية الذين ينتمون الى تلك المدرسة هي تزكية طرق الاسلام في عين الانسان او بالحري في عين الرجل المسلم ولكن شدة اشتباه المسلم المحافظ فيهم واتهامه اياهم بالمروق من الدين يمنعانه من المسير معهم طويلا ونراهم من الجهة الاخرى غالبا غير متفرنجين الى حد ان يجذبوا اليهم المصري المقلد للطرق الاوربية فهم أدنى من المسلم المحافظ في اسلامهم وادنى من المصرى المغالي في تفرنجه ولذلك ترى مهمتهم عسيرة جدا ولكنهم جديرون بكل تشجيع ومساعدة يمكن امدادهم بهما لانهم حلفاء المصلح الاوربي الطبيعيون وسيري كل مصري محب لوطنه ان في تقدم اتباع محمد عبده خير رجاء له في انقاذ برجامه الا وهو جعل مصر مستقلة استقلالا ذاتيا حقيقيا»

وقد علق اللورد في ذيل هذه الصحيفة قوله — انني قدمت لمحمد عبده كل تنشيط استطعته مدة سنين كثيرة ولكنه عمل شاق فضلا عن العداء الشديد الذي كان يلاقيه من المسلمين المحافظين كان لسوء الحظ على خلاف كبير مع الخديو ولم يتمكن من البقاء في منصب الافتاء لولا ان الانكليز أيدوه بقوة . وقد اثنيت عليه في تقاريري السنوية ثناء عظيما وأنا أعظم الناس أسفاً حقيقياً على وفاته على انني في الوقت نفسه لا أرى بدا من الاعتراف بما عراني من الدهشة عند ماطالعت بعض الانباء الجديدة في كتاب المستر ولفرد بلنت فيظهر ان المستر ولفرد بني آراءه في المسائل المصرية على ماسمعه من محمد عبده فقال عنه في كتابه التاريخ السري انه فيلسوف كبير ووطني عظيم . وقد قرأت بدهشة وأسف معا ما يأتي بلسان محمد عبده .

« عرض على الشيخ جمال الدين الفتك باسماعيل يوما عند مروره بعربته يوميا على كوبري قصر النيل فاستحسنت رأيه ووافقته ولكن الامر اقتصر على الكلام بيننا ولم نوفق الى شخص يتولى تنفيذ هذا العمل » فكفاني أن أقول بعد هذا ان العالم المتمدن عموما ينظر شزرا الى الوطنيين ويحتقر بالا كثر اولئك الفلاسفة الذين لا يتأخرون عن تعزيز مقاصدهم السياسية بمثل ارتكاب القتل » اهـ من ترجمة المؤيد

المقابلة بين القولين

من قابل بين ما قاله اللورد في تقريره وما كتبه في كتابة مصر الحديثة » يرى فرقاً عظيما بين القولين فان عبارة التقرير لا ذم فيها ولا تعريض وعبارة التاريخ فيها ذم صريح ، وتعريض ظاهر بل المدح الذي فيها بمعنى ما في التقرير ضئيل مبهم يحتمل صرفه الى الذم في بعض المواضع فانه لما وصفه بالعلم فضله على السادات والبكري وهما ليسا من العلماء ولما ذكر انه متهم بالفلسفة فسر ذلك بالتفرقة بين القرن السابع والقرن العشرين . وقد قال المؤيد في هذا التفاوت ما يأتي

« قضى المرحوم الشيخ محمد عبده من عمره بضع عشرة سنة وهو صديق مخلص للورد كرومر وقضى هذا اللورد زمنه الذي صادق فيه هذا الشيخ وهو يساعده في الوظائف ويدافع عنه فيها . ويقول الآن بصريح العبارة انه لولاه ما بقي في منصب الافتاء طويلا . كان اللورد يطريه مدحاً في حياته كلما ذكر اسمه في مجلسه وكلما جاءت مناسبة لذكره

في تقاريره ويخيل لقارئ كتاب مصر الحديثة الآن ان اللورد يحاول ان يطمن عليه أكثر من كل انسان في مصر لولا ماسبق له من المدح فيه . فلم هذا ؟؟

رأي المؤيد في صداقة اللورد للشيخ

« ان جواب هذا السؤال موجود بين سطور اللورد كرومر فيما كتب عن هذا الرجل في كتابه الاخير » .

ثم ذكر المؤيد في بيان ذلك انه كان من زعماء الثورة العرابية وأوضح ذلك وأكده وذكر قول اللورد ان الخديوي السابق عفا عنه بتشديد الانكليز عليه في ذلك ، وانه كان على خلاف كبير مع الخديوي ثم بين صاحب المؤيد رأيه وأضاف اليه كلمة طالما حاكت في صدره ونوه بها حتى لفظها اليوم فأراحنا وأراح الناس قال ما نصه:

« من خلال هذا الكلام يظهر الجواب الحقيقي وهو أن اللورد كرومر لم يكن صديقا للمرحوم الشيخ محمد عبده كما كان هذا صديقا مخلصا له ولكنه كان متمسكا بصداقته الظاهرية لانه كان يريد أن يضع في يده رجلا قوي العارضة لدود الخصام عدواً لتوفيق باشا أولا ولخلفه ثانيا ولاسماعيل باشا قبل ذلك . ولا مراء في أن المرحوم الشيخ محمد عبده كان يكره طائفة الباشوات كما يقول عنه اللورد من جهة وكان وطنيا صادقا من جهة أخرى . فكان اللورد يحبه من الجهة الاولى ولا يستطيع أن يخلص له الحب من الجهة الثانية . لذلك كان يطريه وهو ينتفع باطرائه . أما الآن وقد مات الشيخ محمد عبده وفارق اللورد كرومر

مصر فلم تكن ثمت حاجة لان يداري اللورد فيه كل المداراة وانالاحظ أن يداري نفسه لما كتب عنه أولا فيما كتب عنه ثانيا فجاءت كتابته هكذا خليطا من المدح والقدح وثوب الرياء يشف عما تحته

قول المؤيد في الشيخ نفسه

«وعندنا ان المرحوم الشيخ محمد عبده كان رجلا عالما فاضلا ذا خلال محمودة كثيرة من صفات النجدة والوفاء والمروءة ولا نقول كما قال اللورد عنه انه كان ملحداً أو لا أدريا أو ضعيف الايمان لان الايمان من أعمال القلوب التي يستأثر الله بعلمها وأما ظواهره فكانت مجال مقال كثير لاصدقائه من جهة ولاعدائه من جهة أخرى ولكنه كان على كل حال عالما مصلحا يحاول ما استطاع اصلاح الفاسد من الشؤون التي طرأت على الدين ويعمل لذلك بغيرة لا تفتر وفي آخر عهده من الدنيا كان يعتقد في نفسه اعتقادا ملأ جوانحه أنه رسول اصلاح من عند الله فكان يجاهد في سبيل ذلك جهادا حقيقيا وان لم ينل حظ الثقة العامة بذلك . وأضعف الجوانب في أعمال وآراء الشيخ محمد عبده كان الجانب السياسي منه فكان فكره السياسي خياليا غالبا كما قال اللورد لانه كان في كثير من الظروف يخيل له أن يقبض بكلتا يديه على اللورد كرومر من جهة وعلى الجناب الخديوي من جهة فيفشل في الامرين معا حتى يقول الجناب الخديوي من جهته مايقول فيه وحتى يضحك اللورد من هذا الضعف السياسي فيه

« هذه كلمتنا في المرحوم الشيخ محمد عبده قلناها بحرية تامة في هذه المناسبة لنقول : ان كان اللورد أصاب في بعض ما قاله عن المرحوم الشيخ

محمد عبده فقد أخطأ في حقه مرتين الاولى في حياته لانه لم يكن يعضده ويساعده الا لغرض واحد وهو أن يكون عدواً حقيقياً دائما للخديو فكان يدفعه دائما الى الامام في ذلك والثاني أنه تعرض الآن للطعن على عقيدته والعقيدة مسكنها القلب خصوصا وان الطـاعن مسيحي على عالم مسلم فيما هو مسلم به

ولكن اللورد أراد من هذا الطعن شيئا آخر وهو ان المسلم ان صار مصلحا يوما مالم يستطع أن يكون كذلك الا وهو مارق من الدين. حتى انه لما مدح الشيخ بيرم وذكر من صفاته انه كان يحاول أن يطبق أحكام الاسلام على المعلومات المصرية قال عنه انه كان لكن يحاول أن يربع الدائرة»

قولنا فيما كتب المؤيد

اذا تنازع الكاتب فكران أو شعوران عند الكتابة في موضوع هو أصل في أحدها والآخر فرع له فيوشك ان يذهله الفرع عن اهم أركان الاصل كما وقع للمؤيد فوجب ان نبين ما غلط به المؤيد هنا حتى خفي عليه به خطأ اللورد الحقيقي لنفي الموضوع حقه فنقول

(١) ان الاساس الذي بنى عليه المؤيد تفرقته بين كلامي اللورد في هذا المقام غير صحيح وهو ان اللورد كان يطري الشيخ في حياته اذ كان ينتفع باطرائه في دفعه لعداء الخديو ثم ذمه بعد موته وخروجه هو من مصر لزوال هذه الحاجة . فان هذا الثناء العظيم في تقريره الذي ليس عندنا مدح منه سواه قد كتبه بعد موته واذا كان عند صاحب المؤيد رواية لسانية عن اللورد فهي لا تقوم حجة عليه ولا يصح مقابلتها بما كتبه اليوم الا ان يكون على سبيل التبع

(٢) ان كون الاستاذ الامام كان من زعماء الثورة العرابية لا يصلح سببا ولا جزء سبب لمساعدة اللورد إياه والا لساعد سائر زعمائها

(٣) ان اللورد فسر بغض الشيخ محمد عبده للباشوات بأنه قلما وجد فيهم صالحا وانه متى وجد الصالح لا يعرض عنه ولا يعارضه لصدق وطنيته فوافقه صاحب المؤيد على كونه كان يكره الباشوات وعلى كونه كان صادق الوطنية . ثم مثل بغضه للباشوات بعداوة الخديو الحال وابيه وجده ونحن لا نوافقه على هذا التمثيل الذي يوهم الحصر. أما كرهه لاسماعيل فهو معقول مهما كانت سنه ومعارفه السياسية في ذلك العهد وسنبين ذلك . واما توفيق فقد كان هو وأستاذه جمال الدين من حزبه وشيعته على أبيه وقد نقم منه اخراج استاذه من البلاد ونفيه هو الى بلده وكان راضيا منه أتم الرضى عند ماساعد الوزارة الرياضية على الاصلاح في البلاد . ولما حدثت مبادي الثورة العرابية كان الشيخ مقاوما للعرابيين ولما استفحل الامر كان مرشداً معتدلا بحسب علمه وقد ظهر له في اثناء ذلك استعانة توفيق باشا بالانكليز على العرابيين فكرهه في أثناء ذلك كراهة شديدة كما يعلم من مذكراته في شأن تلك الحوادث ومنها ان مذبحة الاسكندرية كانت بايعاز من الخديو ليثبت لانكلترا وسائر الاوربيين عجز عرابي عن حمايتهم وقد كتب برودلي المحامي عن العرابيين شيئاً من هذا في كتابه نقلا عنه . وأما العباس أيده الله بتوفيقه وعنايته فقد كان في اكثر مدة ولايته على مودة مع المرحوم وهو الذي اقترح من نفسه جعله مستشاراً في الاستئناف وهو هو الذي اختاره بنفسه مفتيا للديار المصرية ولم يكن للورد دخل في ترقي الشيخ محمد عبده في الوظائف الاعدم المعارضة والفضل الايجابي في ذلك

للامير وحده كما كان يصرح به الشيخ مراراً. ولكن حدث في السنين الاخيرة بينهما شيء من سوء التفاهم بسعاية بعض المفسدين الذين يعرفهم صاحب المؤيد أكثر من غيره اذا كان يقاوم سعايتهم ومفاسدهم الى ان غضب هو أيضاً . وزاد سوء التفاهم تلك المسألة التي أشار اليها المؤيد في ترجمة حسن باشا عاصم فقال ما معناه انها مسألة كان يرى نفسه فيها قائماً بواجب تفرضه عليه الذمة وكان يراه مولاه فيها متعنتاً . — وله ان يقول مثل ذلك في صديقه وشريكه فيها الشيخ محمد عبده —

فمن هذه الخلاصة الوجيزة يعلم ان إظهار اللورد الصداقة للشيخ بضع عشرة سنة لا يتأتى ان يكون المراد به دفعه في عداوة الخديو كما قال المؤيد. على انه كان أثبت من ان يندفع بيد اللورد أو غيره فقد كان في الذروة العليا من الاستقلال في فكره وارادته وناهيك أيضاً بوطنيته وديانته . حقا أقول انني كنت أراه حتى في المدة الاخيرة التي قوي فيها سوء التفاهم بينه وبين الامير يتمنى لو يكون الامير موفقاً مؤيداً في كل شيء يرفع شأن البلاد ويفيدها مصوناً من كل شيء ضار وانني سمعته غير مرة يقول إننا كنا معلقون برجليه فاذا اهبطه الانكليز درجة هبطنا تحته لامعه ، واننا كنا مرة نتحدث في استرضائه فأقسم بأنه لو أمره ان يخرج من البلد لامتثل. ولكنه كان ينكر على المعية امورا كثيرة ويتمنى الوفاق الممكن الذي لا يصحبه ضرر من جهة أخرى . على ان المؤيد استنبط من عبارة اللورد انه يحاول ان يطعن على الشيخ أكثر من كل انسان في مصر لولا ماسبق له من المدح فيه فهل يكفي ان يكون سبب هذا هو الاستغناء عنه بموته وخروجه هو من مصر ؟؟

(٤) توجيه المؤيد قول اللورد في الاستاذ الامام انه كان خيالياً غير وجيه فانه جعل تأويل ذلك بعد التسليم به ان الاستاذ كان يخيل له ان يقبض بكلتا يديه على اللورد من جهة وعلى الخديو من جهة فيفشل في الامرين . وهذا الاستنباط من خيال المؤيد ما أظن انه طاف بخيال اللورد اذا البعد بين الخيالين شاسع جداً . ولخيال المؤيد وجه ودليل من الخارج فان الشيخ رحمه الله كان يتقرب من الامير للاستعانة به قبل كل شيء على خدمة دينه في نحو اصلاح الازهر ثم إبداء النصيحة الواجبة اذا عرض موجبها وكثيراً ما كان يعرض ذلك وقد سمعت من فم الامير في قصره بالقبة انه يستشير الشيخ ويعجبه رأيه ويثق به. وكان أيضاً يختلف الى اللورد للاستعانة به على خدمة وطنه وما كان يطلب منهما شيئاً لنفسه . ومن مصلحة البلاد ان يكون فيها رجال يثق أمير البلاد وعميد الاحتلال معاً بكفاءتهم وصدقهم وذلك من الحقيقة لا من الخيال

(٥) ذكر المؤيد في مواضع ان اللورد طعن في دين الشيخ محمد عبده وجعله لا أدريا أو ملحداً حتى ان من قرأ عباراته ولم يكن عارفاً بكلمة اللورد يظن انه جزم بهذا الطعن واللورد لم يجزم بذلك وإنما قال « أخشى » كما في ترجمة المؤيد نفسه ، أو « أظن » كما في ترجمة بعض الجرائد فوجب علينا ان نبين ذلك

(٦) قال المؤيد انه لا يطعن في ايمان الشيخ لان الايمان محله القلب وان ظواهره كانت مجال مقال كثير لاصدقائه ولاعدائه !! فنقول اننا نحن نوافق المؤيد على قوله ان الايمان من أعمال القلوب التي يستأثر الله بعلمها ويؤيد هذا القول الحديث الصحيح « هل شققت عن قلبه » لمن

قال يارسول الله اعط فلانا فانه مؤمن . ولكن المؤيد وقع في الحكم على القلب الذي انكره على اللورد اذ قال « قضى المرحوم الشيخ محمد عبده من عمره بضع عشرة سنة وهو صديق مخلص للورد كرومر » فالاخلاص كالايمان محله القلب ولا يمكن ان يطلع عليه الا الله تعالى فكيف أجاز المؤيد الحكم على القلب مرة ومنعه اخرى ؟

أما الظواهر التي تدل على قوة ايمانه فهي اقوى من الظواهر التي تدل على اخلاصه فى صداقة اللورد مع العلم بانه كان ابعد الناس عن النفاق والرياء فانه لم يعمل للورد عملا خاصا به أو بدولته ولكنه وقف حياته على خدمة مصر والاسلام ابتغاء مرضاة الله . والمؤيد وان كان قد ادخل فى مسألة الظواهر كلمة محتملة ككلمة ابي سفيان لهرقل فقال انها كانت مجال مقال كثير — قد قال من نفسه مقالا جازما هذا نصه :

« ولكنه كان على كل حال عالما يحاول ما استطاع اصلاح الفاسد من الشؤون التي طرأت على الدين ويعمل لذلك بغيرة لاتفتر . وفي آخر عهده من الدنيا كان يعتقد في نفسه اعتقادا ملأ جوانحه أنه رسول اصلاح من عند الله فكان يجاهد في سبيل ذلك جهادا حقيقيا وان لم ينل حظ الثقة العامة بذلك » فالذى يعتقد هـذا الاعتقاد لا يمكن ان يكون ملحدا او لا ادريا اي شاكا فى وجود الله يقول لا أدري أهو موجود ام لا ؟

صدق المؤيد وان كان في تعبيره بلفظ « رسول اصلاح » غرابة لما لها من المعنى الشرعي الذي ليس بمراد هنا . فان الاستاذ الامام كان يعتقد ان دين الاسلام لابد ان يعود اليه مجده ونوره الذى حال دونه

ظلام البدع والخرافات والتقاليد والعادات وانه هو عالم بحقيقته وبكيفية تسرب البدع اليه وقادر على بيان ذلك وازالته بالحجة وان هذا العمل فرض محتم عليه . وقد غمر هـذا الاعتقاد عقله وقلبه وملك جنانه ووجدانه فبذلك كان يرى انه كان ملهم ومسخر من الله تعالى لهذا العمل ليس فى استطاعته ان يتوانى فيه . وقد ذكر قاسم بك امين في تأبينه ان بعض اصدقائه كانوا يلومونه على تفريطه في صحته وتعبه في بعض الاعمال التي قلما تأتي بما يتوخاه من الفائدة فيها فيعدهم بالتخفيف ولكنه يصبح في الغد اشد اهتماما وعناية مما كان عليه بالامس . وصدق المؤيد في قوله انه لم ينل حظ الثقة العامة باصلاحه اذ لو نال هذا الحظ لما قال لورد كرومر في الاسلام ما قاله اليوم لأن الاصلاح العملي كان يمنعه من ذلك

رأينا في سبب اختلاف قولي اللورد

قال المؤيد ان الجواب عن التفاوت بين كلامي اللورد مذكور في كتابه وقد صدق في هذه ولكن اخطأ اجتهاده فيما يبنه به اذ لا اجتهاد فى مورد النص . اما هـذا النص فهو فى موضعين ذكر أحدهما المؤيد فيما ترجمه من كلام اللورد فى الشيخ وأهله في الرد وأغفل أحدهما فى الموضعين . امااالذي ذكره وأهمله فهو هامش اللورد[1] الذي يذكر فيه دهشته من استمداد مستر بلنت اخبار تاريخه السري للاحتلال من محمد عبده وفى هذا الكتاب من التشنيع على اللورد وسياسته مافيه. واماالذي اغفله المؤيد فدونك ترجمته نقلا عن حاشية ص ٥٢٤ من المجلد الثاني في سياق الكلام عن المعارف : « لقد دهشت بل اعترتني خيبة أمل عند ما قرأت فى كتاب ألفه

(١) راجع الاسطر الاخيرة من ص ٩٠ من المنار

مسيو جورفيل رسالة للشيخ محمد عبده أعطي فيها ذلك الرجل الشهير رجاحة اسمه «أوقوة اسمه» لتهم أو تعريضات من هذا النوع ولا بد انه كان على يقين من انها لا أساس لها . وكنت أرجو منه افضل من هذا » اه علق هذا على هامش معناه هل نظر الانكليز الى انحطاط المصريين السياسي أو الاجتماعي نظر المغتبط فلم يحاولوا ترقيتهم كما يزعم بعض سفلة الناقدين ؟

ونحن نقول ان الرجل لم يعط اسمه لترويج التهم أو التعريضات كما ظن اللورد وإنما أراد الموعظة والتنبيه الى الصواب الذي يعتقده ولكن صاحب الكتاب استخدم اسمه لترويج كتابه وهو ما كان يقول الامام يعلم تمام العلم انه صحيح كل الصحة . واذا كان اللورد يرجو منه يوم كتب تلك الرسالة الى جورفيل أمراً أفضل من هذا فهو أيضاً ربما كان يرجو من اللورد قبيل ذلك أمراً أفضل مما رأى منه عند الحاجة الى مساعدته في أهم وافضل غرض له من حياته . وانا نورد الآن ما جاء في رسالة الاستاذ الامام عن المعارف وهو:

ما كتبه الاستاذ الامام لجرفيل عن المعارف

(التعليم العام) لا تنفق الحكومة المصرية على التعليم العام الا مبلغ مئتي ألف جنيه مع ان في وسعها انفاق اكثر منه لان دخلها قد بلغ في الميزانية اثني عشر مليونا من الجنيهات وهي لا تنفك عن زيادة اجور التعليم التي تتقاضاها من الناس على تعليم اولادهم من حين الى حين وقد بلغت من ذلك الى حد ان صارت تربية الاولاد عبأ ثقيلا حتى على أوساط الناس واذا استمر هذا التزايد أمسى التعليم زخرفا لا يتسنى التحلي به الا في بيوت

انجيل برنابا — مقدمتنا له

قد تم طبع إنجيل برنابا كما قلنا في الجزء الثاني عشر من السنة الماضية وقد كتب له مترجمه الدكتور خليل سعادة مقدمة ذكر فيها ملخص ما قاله علماء الافرنج فيه ورأيه في ذلك فنشرناها وقفينا عليها بمقدمة منا هذا نصها :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على محمد رسول الله ، وعلى عيسى المؤيد بروح الله ، وعلى جميع الانبياء والمرسلين ، ومن اهتدى بهديهم الى يوم الدين

أما بعد فاننا نرى مؤرخي النصرانية قد أجمعوا على انه كان في القرون الأولى للمسيح عليه السلام أناجيل كثيرة وان رجال الكنيسة قد اختاروا منها أربعة أناجيل ورفضوا الباقي . فالمقلدون لهم من أهل ملتهم قبلوا اختيارهم بغير بحث وسيكون ذلك شأن أمثالهم الى ما شاء الله

وأما من يحب العلم و يجتنب التقليد من كل أمة فهو يود اذا اراد الوقوف على أصل هذا الدين وتاريخه لو يطلع على جميع تلك الاناجيل المرفوضة و يقف على كل ما يمكن الوقوف عليه من أمرها و يبني ترجيح بعضها على بعض بعد المقابلة والتنظير على الدلائل المرجحة التي تظهر له هو وان لم تظهر لرجال الكنيسة

لو بقيت تلك الاناجيل كلها لكانت اغزر ينابيع التاريخ في بابها ما قبل منها أصلا للدين وما لم يقبل ولرأيت لعلماء هذا العصر من الحكم عليها والاستنباط منها بطرق العلم الحديثة المصونة بسياج الحرية والاستقلال في الرأي والارادة ما لا يأتي مثله من رجال الكنيسة الذين اختاروا تلك الأربعة ورفضوا ما سواها

أنجيل المسيح عيسى بن مريم عليه السلام واحد هو عبارة عن هديه وبشارته بمن يجيء بعده ليتم دين الله الذي شرعه على لسانه وألسنة الانبياء من قبله فكان كل منهم يبين للناس منه ما يقتضيه استعدادهم وإنما كثرت الاناجيل

لان كل من كتب سيرته عليه السلام سماها إنجيلا لاشتمالها على ما بشر وهدى به الناس

من تلك الاناجيل ﴿ إنجيل برنابا ﴾ وبرنابا حواري من أنصار المسيح الذين يلقبهم رجال الكنيسة بالرسل صحبه بولس زمنا بل كان « هو الذي عرف التلاميذ ببولس بعد ما اهتدى (بولس) ورجع الى اورشليم »(١) فلعل تلاميذ المسيح ما كانوا ليثقوا بإيمان بولس بعد ما كان من شدة عداوته لدينهم لولا برنابا الذي عرفه أولا وعرفهم به بعد ان وثق به . ومقدمة هذا الانجيل الذي نقدم ترجمته لقراء العربية اليوم ناطقة بأن بولس انفرد بتعليم جديد مخالف لما تلقاه الحواريون عن المسيح . ولكن تعاليمه هي التي غلبت وانتشرت واشتهرت وصارت عماد النصرانية . ويذهب بعض علماء الافرنج الى أن انجيل مرقس وانجيل يوحنا من وضعه كما في دائرة المعارف الفرنسية . فلا غرو اذا عدت الكنيسة إنجيل برنابا إنجيلا غير قانوني أو غير صحيح

لم نقف على ذكر لانجيل برنابا في أسفار التاريخ أقدم من المنشور الذي أصدره البابا جلاسيوس الأول في بيان الكتب التي يحرم قراءتها فقد جاء في ضمنها إنجيل برنابا . وقد تولى جلاسيوس البابوية في أواخر القرن الخامس للميلاد أي قبل بعثة نبينا صلى الله عليه وسلم على ان بعض علماء أوربا يرتابون اليوم في ذلك المنشور كما ذكر الدكتور سعادة في مقدمته والمثبت مقدم على النافي

مرت القرون وتعاقبت الاجيال ولم يسمع أحد ذكراً لهذا الانجيل حتى عثروا في أوربا على نسخة منه منذ مئتي سنة فعدوها كنزاً ثميناً ولو وجدها أحد في القرون الوسطى قرون ظلمات التعصب والجهل لما ظهرت وانى يظهر الشئ في الظلمة والنور شرط الظهور ؟

ظهرت هذه النسخة في نور الحرية المتألق في تلك البلاد وكانت موضع اهتمام العلماء وعنايتهم وموضوع بحثهم واجتهادهم وانبرى بعض فضلاء الانكليز في العام الماضي لترجمتها بالانكليزية وتعميم نشرها وقد أهدت الينا نسخة منها

(١) اع ٩:٢٧ كما في ص ٢٢٣ من الجزء الاول من قاموس الكتاب المقدس

عند نشرها فرأينا انه يجب ان لا يكون حظ قراء العربية منها أقل من حظ قراء الانكليزية فكاشفنا بذلك صديقنا الدكتور خليل سعادة فوافقت رغبته رغبتنا وترجم النسخة بالعربية ترجمة حرفية و باشرنا طبعها بعد معارضتها معه على الاصل لاجل الدقة في تصحيحها

بحث علماء أوربا في هذه النسخة وكتبوا في شأنها فصولاً طويلة لخصها الدكتور سعادة في مقدمته فمن مباحثهم ماهو علمي دقيق كـكلامهم في نوع ورقها وتجليدها ولغتها ومنها ماهو من قبيل الخرص والتخمين كأقوالهم في الكاتب الأول لها والزمن الذي كتبت فيه وتبعهم في مثل هذا البحث أصحاب مجلتي المقتطف والهلال

ويجب ان ننبه في هذا المقام على قاعدة من قواعد البحث الفلسفية ، وأصل من أصوله العقلية ، وهي قاعدة إطلاق البحث أو بنائه على أسه ولو مفروضاً . فان كثيراً من الباحثين يبنون أبحاثهم على فرض يتخذونه قاعدة مسلمة ور بما كان فاسداً فيجيء كل ما بني عليه مثله لأن ما بني على الفاسد فاسد حتما . مثال هذا ما امتحن به بعض الفلاسفة تلاميذه وهو انه عمد الى جرة كانت في الشمس فقلبها من غير ان يروه ودعاهم فقال اني أرى وجه هذه الجرة المقابل للشمس بارداً ثم قلبها ولمس الجانب الآخر معهم فاذا هو سخن فطالبهم بعلة ذلك فطفقوا ينتحلون العلل وهو يردها ولما سألوه عن رأيه في ذلك قال انه يجب أن يثبت من صحة الشيء أولا ثم يبحث عن علته . وكون الجانب المقابل للشمس من هذه الجرة بارداً والجانب المقابل للارض سخناً غير صحيح بل قلبتها انا لاختبر فطنتكم

وكذلك فعل بعض الباحثين في إنجيل برنابا فرضوا أنه من وضع بعض المسلمين ثم حاروا في حزر تعيين واضعه هل هو غربي أم شرقي عربي أم عجمي قديم ام حادث . وما قال أحد فيه قولا الا وجد من الباحثين من يفنده حتى رأى الدكتور سعادة بعد الاطلاع على تلك الأقوال ان الاقرب الى التصور أن يكون كاتبه يهوديا أندلسياً من أهل القرون الوسطى تنصر ثم دخل في الاسلام وأتقن

اللغة العربية وعرف القرآن والسنة حق المعرفة بعد الاحاطة بكتب العهد العتيق والجديد . واستدل على هذا الفرض بعلمه الواسع بأسفار العهد القديم وموافقة التلمود واحاطته بالعهد الجديد وغفل عن عزوه الى كتب العهدين ما لا يوجد في نسخها التي عرفت في القرون الوسطي وهي التي بين أيدينا الآن كمز و قصة هوشع وحجي الى كتاب دانيال ، وعن مخالفته لها احيانا في مسائل أخرى ولو كان من أهل القرون الوسطي وما بعدها لما وقع في هذا الغلط الظاهر مع علمه الواسع

واستدل أيضاً بموافقة بعض مباحثه للقرآن والاحاديث وما كل ما وافق شيئاً في بعض مباحثه يكون مأخوذا منه والا لزم ان تكون التوراة مأخوذة من شريعة حمورابي لا وحيا من الله لموسى عليه السلام . على أن معظم مباحث هذا الانجيل لم تكن معروفة عند أحد من المسلمين وأسلوبه في التعبير بعيد جداً من أساليب المسلمين عامة والعرب منهم خاصة كما بين ذلك بعض القسيسين في مجلة دينية وأي مسلم يذكر الله ولا يثني عليه والانبياء ولا يصلي عليهم ويسمي الملائكة بغير الاسماء الواردة في الكتاب والسنة

وقد كانت مسألة اليوبيل أقوى الشبهات عندي على كون كاتبه من أهل القرون المتوسطة لا من قرن المسيح حتى بين الدكتور سعادة ضعفها بدقة نظره فلم يبق للباحثين دليل يعول عليه في هذا المقام فان موافقة بعض ما فيه لبعض ما ورد في شعر دانتي يمكن ان يعلل بأن دانتي اطلع عليه وأخذ منه ان لم يكن ذلك من قبيل توارد الخواطر

أما الهوامش العربية التي وجدت على النسخة فيحتمل ان تكون للراهب فرمرينو الذي اكتشف هذا الانجيل في مكتبة البابا بأن يكون دخوله في الاسلام حمله على تعلم العربية حتى كان مبلغ علمه فيها ان يترجم بعض الجمل بعبارة سقيمة تغلب عليها العجمة وما فيه من العبارات الصحيحة على قلتها لا ينافي ذلك فان كل من يتعلم لغة اجنبية في سن الكبر تكون كتابته فيها لاول العهد من هذا القبيل: صواب قليل، وخطأ كثير ، على ان اكثر العبارات الصحيحة في هذه الهوامش منقول من القرآن أو بعض الكتب العربية التي يمكن ان يكون قد اطلع عليها الكاتب . ويحتمل

أن يكون بعض القسوس أو من هم على شاكلتهم قد تعلم العربية ليتبين هل فيها مصادر لهذا الانجيل يمكن ارجاعه اليها . و يرجح هذا الاحتمال تسميته الفصول سورا تشبيها له بالقرآن أما عزو هذه الهوامش الى مسلم عريق في الاسلام فخطأ لا يحتمل الصواب اذ لا يوجد مسلم عربي ولا عجمي يطلق لفظ السور على غير سور القرآن أو يقول « الله سبحان » كما جاء في مواضع منها هامش ص ١٤١ و ١٦ لان كلمة «سبحان الله » مما يحفظه كل مسلم من اذكار دينه ، أو يقول ميخائيل بدل ميكائيل ويجهل اسم اسرافيل فيسميه اوريل أو رفائيل ، او يقول ان السموات اكثر من سبع وان العدد لا مفهوم له كما قال علماء الاصول . ولذلك أمثلة أخرى أضف اليها عدم اطلاع علماء المسلمين في الاندلس وغيرها على هذا الانجيل كما حققه الدكتور مرجليوث مؤيداً تحقيقه بخلو كتب المسلمين الذين ردوا على النصارى من ذكره ، وناهيك بابن حزم الاندلسي وابن تيمية المشرقي فقد كانا أوسع علماء المسلمين في الغرب والشرق اطلاعا كما يعلم من كتبهما ولم يذكرا في ردهما على النصارى هذا الانجيل

بقي أمر يستنكره الباحثون في هذا الانجيل بحثاً علمياً لا دينياً أشد الاستنكار وهو تصريحه باسم « النبي محمد » عليه الصلاة والسلام قائلين لا يعقل ان يكون ذلك كتب قبل ظهور الاسلام اذ المعهود في البشارات ان تكون بالكنايات والاشارات والعريقون في الدين لا يرون مثل ذلك مستنكراً في خبر الوحي وقد نقل الشيخ محمد بيرم عن رحالة انكليزي أنه رأى في دار الكتب البابوية في الفاتيكان نسخة من الانجيل مكتوبة بالقلم الحميري قبل بعثة النبي (ص) وفيها يقول المسيح « ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد » وذلك موافق لنص القرآن بالحرف ولكن لم ينقل عن أحد من المسلمين أنه رأى شيئاً من هذه الاناجيل التي فيها البشارات الصريحة فيظهر ان في مكتبة الفاتيكان من بقايا تلك الاناجيل والكتب التي كانت ممنوعة في القرون الأولى مالو ظهر لأزال كل شبهة عن انجيل برنابا وغيره .

على انه لا يبعد ان يكون مترجم برنابا باللغة الايطالية قد ذكر اسم « محمد » ترجمة وانه في الاصل الذي ترجم هو عنه قد ذكر بلفظ يفيد معناه كلفظ البارقليط

ومثل هذا التساهل معهود عند المسيحيين في الترجمة كما بينه الشيخ رحمة الله في الشواهد الكثيرة من كتبهم في الامر السابع من المسلك السادس من الباب السادس من كتابه اظهار الحق وزاده بعد ذلك بيانا في البشارة الثامنة عشرة

ولا يحسبن القارئ المسلم ان علماء أوربا وبعض علماء بلادنا كالدكتور سعادة وأصحاب المقتطف والهلال يظهرون الريب في هذا الانجيل الموافق في أصول تعاليمه للاسلام تعصباً للنصرانية فان الزمن الذي كان التعصب فيه يحمل العلماء على طمس الحقائق التاريخية وغيرها قد مضى . وقد بحث علماء أوربا مثل هذه المباحث في الاناجيل الأربعة فبينوا انه لا يعرف متى كتبت ولا بأي لغة ألفت وقال بعضهم ان مؤلفيها غير معروفين واتهم بعضهم بولس بوضع أكثرها كالدكتور كارى في دائرة المعارف الفرنسية وغيرها بل منهم من جعل أصول تعاليمها مأخوذة من الاديان الوثنية

أكثر العلماء في هذا العصر أحرار مستقلون في مباحثهم الا من غلب عليه التقليد الديني أو مصانعة المتدينين ألا ترى ان الدكتور مرجليوث الانكليزي هو الذي دحض شبهة من قال ان لهذا الانجيل أصلاً عربياً وانه من وضع المسلمين ، وان الدكتور سعادة هو الذي فند رأي المستدل على كونه من وضع القرون الوسطى بما فيه من ذكر كون اليوبيل كل مئة سنة ، وان أصحاب المقتطف يجوزون أن يكون له أصل ترجمت عنه النسخة الايطالية ويحثون على البحث عنه ، فأمثال أولئك العلماء يجب احترام رأيهم وان لم يكن دليله واضحاً وتعليله ظاهراً

ومن لاحظ ان بعض القسيسين يجعلون العمدة في اثبات الاناجيل الاربعة ما فيها من التعاليم الادبية العالية ثم قرأ تعاليم انجيل برنابا يظهر له مكانه العالي في تعاليمه الالهية والأدبية . فاذا صرفنا النظر عن فائدته التاريخية وعن حكمه لنا في المسائل الثلاث الخلافية – التوحيد وعدم صلب المسيح ونبوة محمد (ص) – لحسبنا باعثاً على طبعه وراء قيمته التاريخية ما فيه من المواعظ والحكم والآداب وأحاسن التعاليم ، والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم ،

القاهرة في ٢١ صفر سنة ١٣٢٦ محمد رشيد رضا الحسيني

منشئ المنار



Vero euangelio di iesu chiamato christo
nouo profeta mandato da dio al mondo
secondo la descritione di barna
ba apostolo suo

Barnaba apostolo di iesu nazareno chiama
to christo a tutti quelli che habitano sopra la
terra pace he consolatione desidera. Charissimi
il grande he admirabile dio questi giorni pas
sati cia uisitati per il suo profeta iesu christo
in grande misericordia di dotrina he miracu
li per la qualle chosa molti ingannati da satana
sotto pretesto di pieta predichano impiissima dot
trina. chiamando iesu figlio di dio repudian
do la circoncisione pato di dio in sempiterno
he concedendo ogni cibo in mondo tra quali he
paulo he ingannato del quale non senza dolo
re io ne parlo. per la qual chosa io scriuo
quella uerita la quale ho ueduta he sentita
nella conuersatione chi ho conuersato con i
esu acioche siate salui he non siate ingannati
da

---

date tanto quanto per ammore di dio. onde non
siate pigri nel dare he date quello che e (?)
del migliore per ammore di dio. ditemi uolle
te uoi ricieuere chossa ueruna da dio certa
no certo zo poluere he cenere. adunque che fe
de hauete se de in uoi se donete chossa ueruna ca
tiua per ammore di dio. meglio saria non da
re niente che dare chossa chatiua perche non da
do hauerete qualche scusa secondo il mondo
ma dando chossa trista he seruando per uoi il
migliore quelle sera la scusa he questo he quan
to mo da dire circha la penitenza. rispose o am
to lameo (?) quanto tempo deue durare la penitenza
he rispose iesu mentre che lo homo he in stato
di pechato deba sempre pentirsi he farne pen
itenza onde si chome la uitta humana sempre pe
cha chosi sempre deue fare penitenza. se uoi
non uolete fare piu chonto delle scarpe uostre che
delle anima uostra posseia che ogni uolta che
rontono quelle uoi le rachonziate.

Chomuda

خطبة حفني بك ناصف

(رئيس نادي دار العلوم في مسألة التعريب)

أكثر القائلون بتطبيق «سياسة الباب المفتوح» على اللغة العربية من ذكر جمود أمتنا واشتغالها عن الجواهر بالاعراض ووقوفها موقف المستضعفين أمام الامم الغربية ونعوا علينا تحرجنا قبول الدخيل في لغتنا ورمونا « بالرجوع الى الوراء والنفور من كل جديد والوقوف عند حد ما أماته الزمان ومخالفة سنة اللغات الحية صاحبة الحركة الدائمة التي قدر أهلها أن ينتفعوا بكل ماخلقه الله » الى آخر ما أتوا به من القضايا الخطابية بقصد التأثير في أفكار السامعين حتى تخيلوا ان الكلم الاعجمية واجبة الاستعمال في اللغة العربية حرصا على الزمن أن يضيع في انتقاء ألفاظ عربية تسد مسدها وان قواعد الاقتصاد السياسي تقضي بصرفه في اختراع آلة حربية أو معمل صناعي أو مصرف مالي ولقد كدت من شدة التأثير أمسك عن الكلام خيفة ان أضيع عليكم ساعة يمكنكم فيها اختراع بندقية جديدة أو آلة للطيران أو علاج للسرطان

مسكينة الامة المستضعفة لاتدري من أين تؤتى ولا تعرف لتأخرها علة فتذهب مع كل ذاهب وتمشي وراء كل حاطب

ظننا النيل سبب رخاوتنا فعدلنا عنه الى الآبار فما نشطنا، وخلنا الازياء

الواسعة مانعتنا عن الحركة فاستبد لنا بها أزياء ضيقة فما عدونا، وحسبنا اقتعاد السيارات والدراجات يوصلنا الى المدنية فاقتعدنا وما استفدنا، وزعمنا ملاهي التمثيل، أقرب سبيل، فأبدعنا، وعددنا النفازج (الباللو) معارج فما عرجنا، وغيرنا العمائم بالقلانس والدور بالقصور وظهور الصافنات ببطون العربات فما أخرجنا كل ذلك عما نحن فيه من الاستضعاف ولا سما بنا الى راقي الالمان، والانكليز واليابان

ان لارتفاع الامم وانحطاطها أسبابا خاض فيها الحكماء وأفاض في بيانها العلماء وليس المقام الآن مقام ذكرها وان المسألة التي نحن بصددها مسألة نقلية يرجع فيها الى كتب اللغة والادب وليس لاحد ان يأخذ فيها بالهوى أو يسترسل مع الوجدان أو يقتصر فيها على مجرد الاستقباح والاستحسان فكما لا يجوز في التاريخ ان تنكروا غلبة اليابان للروس محتجين بان الصغير لا يغلب الكبير لا يجوز في العربية أن تنصبوا الفاعل وتقدموا خبر ان على اسمها احتجاجا بأن المعنى لا يتغير ولا ان تقولوا «ماالفرق بيننا وبين العرب الاولى حتى جاز لهم وضع ألفاظ مقتضبة وتعريب كلمات أعجمية والشذوذ عن القياس وامتنع علينا أليسوا رجالا ونحن رجال؟»

ليس لاحد ان يقول ذلك الا اذا خرج من الربقة وخلع العذار ورضي بان يكون طليقا لا يتقيد بشيء. المسألة منصوصة في الاسفار فمن شاء ان يخرق الاجماع ولا يقصر شيئاً على السماع ويستريح من عناء الدروس فليصنع ماشا فليس عندنا ما يرغمه على اتباع الجماعة ولا فائدة في الجدال معه واذا شاء ان يتبع المنصوص فها هو بيانه.

اتفق العلماء على أن اللغة العربية كانت لسان عاد وثمود وأميم وعبيل

وطسم وجديس وعمليق وجرهم ووَبار من أولاد إرم بن سام

وأول تنقيح دخلها كان بعمل يعرب بن قحطان رأس العرب العاربة وجرى اولاده على لغته في انحاء اليمن كلها ثم تفرق جماعة منهم في نجد والحجاز وتهامة والشام والحيرة

ولما اصهر اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام الى قبيلة جرهم أدخل تنقيحا ثانيا في اللغة وجرى على أثره القبائل من أولاده كربيعة ومضر وكنانة ونزار وخزاعة وقيس وضبة

والتنقيح الثالث أدخلته قريش بالتدريج انتخابا من لغات قبائل العرب التي كانت تفد عليهم في كل عام وتمكث بين ظهرانيهم نحو خمسين يوما منها ثلاثة ايام بسوق ذي المجاز وسبعة بسوق مجنة وثلاثون بسوق عكاظ وعشرة في مناسك الحج

والتنقيح الرابع هو اختيار علماء المصرَين البصرة والكوفة (نقلة اللغة في عصر الامويين والعباسيين) فقد قصروا اختيارهم على ست قبائل من صميم العرب لم تختلط بغيرها وهم قيس عيلان واسد وهذيل وبعض تميم وبعض كنانة وبعض طي ولم يأخذوا عن لخم وجذام لمخالطتهم القبط اهل مصر، ولا عن قضاعة وغسان واياد لمخالطتهم اهل الشام والروم وأكثرهم نصارى يقرءون بالعبرانية ، ولا عن تغلب لانهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ولا عن بكر لمجاورتهم النبط والفرس ولا عن عبد القيس وازد عمان لانهم كانوا بالبحرين مخالطين الهنديين والفرس، ولا عن اهل اليمن (حمير وهمدان وخولان والازد) لمخالطتهم الحبشة والزنج والهنديين ولا عن بني حنيفة وسكان اليمامة وثقيف والطائف لمخالطتهم تجار اليمن عندهم

ولا عن حاضرة الحجاز وقت نقل اللغة لفساد لغتها بالاختلاط

وعدوا لغة قريش أفصح اللغات العربية لانها خالية عن عنعنة تميم وهي ابدال الهمزة عينا نحو عَنتَ وعنكِ أي أنت وانك ، وعن تلتلة بهراء وهي كسر أول المضارع نحو تِلعب وتِلهو ، وعن كسكسة ربيعة ومضر وهي إلحاق سين بعد كاف المخاطب رأيتكَسْ ، وعن كشكشة هوازن وهي إلحاق شين بعد كاف المخاطبة نحو رأيتكِشْ وعن فحفحة هذيل وهي قلب الحاء عينا نحو عَتّى أي حتى، وعن وكم ربيعة وهي كسر كاف الخطاب بعد الياء الساكنة أو الكسرة نحو عليكِمْ وبكِم، وعن وَهْم بني كلب وهي كسر هاء الغيبة اذا لم يكن قبلها ياء ساكنة ولا كسرة نحو عنهِمْ وبينهِم وعن جمجمة قضاعة وهي قلب الياء الاخيرة جيما نحو الساعج يدّعج أي الساعي يدعي وعن وَتْم أهل اليمن وهو قلب السين المتطرفة تاء نحو النات أي الناس ، وعن الاستنطاء في لغة سعد والازد وقيس وهو قلب العين الساكنة نونا قبل الطاء نحو أنطى أى أعطى ، وعن شنشنة اليمن وهي قلب الكاف شينا نحو لبيش اللهم لبيش ، وعن لخلخانية الشحر وعمان وهي حذف الالف في نحو مشاءالله أي ماشاء، وعن طُمْطمانية حمير وهي جعل أل « ام » نحو ، وعن طاب امهواء أي الهواء وغمغمة قضاعة وهي اخفاء الحروف عند الكلام فلا تكاد تظهر

ولم ينظر نقله اللغة الى لغة كل قبيلة على حدتها بل جمعوا الالفاظ التي يتكلم بها كل القبائل التي عولوا على الاخذ عنها وجعلوها لغة واحدة مقابل اللغة الاعجمية لا يخطئ المتكلم الا اذا خرج عنها كلها فلفظ المدية لغة دوس (بطن من الازد) ولفظ السكين لغة قريش فنص الائمة اللفظين

وأباحوا لكل انسان أن يتكلم بأيهما شاء ولو لم يوجد في العرب من تكلم بهما معا ومن هنا جاء الترادف في اللغة والاشتراك اللفظي ولو جمعوا لغة كل حي من العرب على حدتها لتكرر العمل وطال الزمن

ثم نظروا بعد ذلك الى المفردات فما كان منها كثير الدوران على ألسنة العرب عدوه غريباً ووحشيا يعدّ استعماله مخلا بالفصاحة ولو كان معروفاً عند المخاطبين

واستخرجوا من استعمالات العرب قواعد تتعلق بأحوال أواخر الكلم وقواعد تتعلق بباقي أحوالها وسموها علم النحو والصرف وجعلوا لبعض تلك القواعد قيوداً واستثناآت حتى يكون الاستعمال الكثير مضبوطاً بقوانين تحتذى عند القياس وما شذ عن ذلك جعلوه سماعيا يقبل من العربي ولا يقبل من المولد

وكانوا شديدي الحرص على بيان السماعي والقياسي فاذا لم يكن اللفظ (مادة أو هيئه) قد سمع من العرب منعوه بتاتا وشنعوا على مستعمله

ولاجل أن يعرف السامع مقدار عنايتهم بالمسموع من العرب ومقدار الانحطاط الذي كان يلحق بمن يخطئ منهم أروي لك قصة وفود سيبويه على يحيى بن خالد البرمكي ببغداد فقد عقد يحيى مجلسا جمع فيه بين سيبويه رئيس نحاة البصرة وبين علي الكسائي رئيس نحاة الكوفة فقال له الكسائي: تسألني أو أسألك؟ فقال سيبويه سل أنت فسأله الكسائي عن قول العرب « قد كنت أظن ان العقرب أشد لسعة من الزنبور فاذا هو هي » أيجوز « فاذا هو اياها » فقال سيبويه لايجوز النصب فقال الكسائي العرب ترفع ذلك وتنصبه فقال يحيى لقد اختلفتما وأنتما رئيسا بلديكما فمن يحكم بينكما فقال

له الكسائي هذه العرب ببابك قد سمع منهم أهل البلدين فيُحضَرون ويُسألون فقال يحيي وجعفر أنصفت وامرا باحضار أعرابي من أهل البادية وسألوه فقال «القول قول الكسائي» فقال سيبويه ليحيي «مره أن ينطق بذلك فان لسانه لا يطاوعه» فاكتفى المجلس بحكم الاعرابي وخجل سيبويه وسافر بعد ذلك الى فارس فأقام بها حتى مات وكانت هذه المسألة سبب علته وكانت وفاته في سنة ١٨٠ وعمره ٣٢ وهكذا كانت عادة علماء البلدين متى اختلفوا في أمر تلَمَّسوه عند البدو وتسمَّوه منهم

وعرفوا المعرّب بأنه الاسم الاعجمي الذي فاهت به العرب الموثوق بعربيتهم فاذا فاه به غير العربي سمي مولداً وقد تبعهم في ذلك كل من كتب في اللغة كأصحاب الصحاح والقاموس والمحكم والعباب وأجمع العلماء على أن لا يستشهد في اللغة والصرف والنحو الا بكلام العرب ولا يجوز الاستشهاد بكلام المولدين الا في علوم البلاغة

واجازوا استعمال الكلم في غير ماوضعت له متى وجدت مناسبة بين المعنى الاصلي والمعنى المراد وقامت قرينة تمنع ارادة المعنى الاصلي وحصروا تلك المناسبات بالاستقراء وسموها علاقات وهي

المشابهة نحو فاه الخطيب بالدرر أي الكلمات الحسان

والسببية — نحو رعينا الغيث أي الكلاء

والمسببية — نحو أمطرت السماء نباتا أي ماء

والكلية — نحو «يجعلون أصابعهم في آذانهم

والجزئية — نحو بث الامير العيون أي الجواسيس

والحالية — نحو «ففي رحمة الله هم فيها خالدون» أي الجنة

والمحلية — نحو سال الوادي وجرى الميزاب أي ماؤه
واللازمية — كاطلاق الحرارة على النار
والملزومية نحو دخلت الشمس من الكوّة أي ضوءها
والاطلاق — نحو « لا صلاة لجار المسجد الا في المسجد » أي لاصلاة كاملة
والتقييد كاطلاق المشفر على شفة الانسان والمشفر للبعير كالشفة للانسان
والعموم — كاطلاق الابيض والاسمر على السيف والرمح والدابة على ذات الاربع
والخصوص - كاطلاق اسم الشخص على القبيلة نحو تميم وقريش وربيعة
والبدلية — نحو في ملك فلان الف دينار أي متاع يساوي الفا
والمبدلية — نحو « أكلت دما ان لم أرعك بضرة » أي أكلت دية
واعتبار ما كان — نحو « وآتوا اليتامى أموالهم » أي الذين كانوا يتامى
واعتبار ما يكون — نحو « أراني أعصر خمرا » أي عنبا
الدالية — نحو فهمت الكتاب أي معناه
والمدلولية — نحو « قرأت معناه مشفوعا بتقبيل » أي قرأت لفظه
والمجاورة — نحو شربت من الراوية أي المزادة المجاورة للجمل وقد تكون المجاورة في الذكر فقط كما في المشاكلة نحو: اطبخوا لي جبة وقميصا
والآلية — نحو « واجعل لي لسان صدق » أي ذكراً حسنا صادقاً
والتعلق — كاطلاق لفظ المصدر على الفاعل أو المفعول كشاهد عدل « وهذا خلق الله »
والشرطية — نحو « وما كان الله ليضيع إيمانكم » أي صلاتكم

والمصدرية – نحو «فرجعوا الى أنفسهم» أي آرائهم
والمظهرية – نحو «يد الله فوق أيديهم» أي قدرته
والتضاد – كاطلاق البصير على الاعمى

ومتى اشتهر اللفظ في معناه المجازي صار حقيقة عرفية له حكم الحقيقة الوضعية

وقد صارت اللغة بهذا التنقيح الاخير لغة العرب عامة لا لغة قبيلة بعينها فأي لفظ نطقت به فانت مصيب وأي استعمال جريت عليه فلست بمخطئ ما دمت لم تخرج عن المنقول وأية علاقة صادفتك من العلاقات السالفة الذكر توصلك الى تسمية مالم تسمه العرب فلست مقيداً بلفظ أعجمي ولا بلهجة حي معين وصرت بذلك بعيداً عن الخطأ واسع المجال في النثر والنظم والتقلب في الاساليب الانشائية تصول وتجول وتتهم وتنجد حسبما يسمو اليه استعدادك وتصل اليه درجتك من الاطلاع وتمكنك منه بضاعتك فلك ان تقول المدية كما تقول دوس وان تقول السكين كما تقول قريش وان تنطق كلمة «حيث» بتسع لغات ولفظ «ياربي» بست لغات وتركيب (بادئ بدء) بثمانية عشر وجهاً وان ترفع الخبر وتنصبه في نحو ما هذا بشراً وان تطلق الاسد على السبع والشجاع والعين على الباصرة والذهب والجاسوس وتصرّح وتعمّي حيث تحتاج لذلك وتنقل الى العربية كل ما فهمته من اللغات الاخرى

وقد وقع جاسوس عربي في يد العدو فحبسوه وألزموه أن يكتب كتاباً الى ملكه يحمله فيه على مداهمتهم ويوهمه بقلة عددهم وعُددهم غشا وتغريراً فكتب الى الملك كتاباً قال فيه :

« أما بعد فقد أحطت علما بالقوم ، وأصبحت مستريحا من السعي في تعرف احوالهم ، واني قد استضعفتهم بالنسبة اليكم وقد كنت أعهد في أخلاق الملك المهلة بالامور والنظر في العاقبة فقد تحققت انكم الفئة الغالبة باذن الله ، ولقد رأيت من أحوال القوم ما يطيب به قلب الملك نصحتُ فدع ريبك ودع مهلك والسلام »

وسلم الكتاب الى العدو فأرسلوه الى الملك بعدما اطلعوا عليه فتفطن الملك لما أراد الكاتب وقال لحاشيته ان الجاسوس وقع في الاسر فأصبح مستريحا من السعي وانه رآهم أضعافنا وانا قليل بالنسبة لهم اذ لمح بآية « كم من فئة قليلة » ولفتني الى الاناة اذ جعلها عادة لي وأراد قلب حروف الجملة الاخيرة فتكون « كلهم عدوٌ كبيرُ عددٍ فتحصن »

على هذا استقرت اللغة العربية وتم إحكامها وحصرت مفرداتها الاصلية وقوانينها وأبيح استعمال مفرداتها في غير ما وضعت له عند الاحتياج. بشرط العلاقة والقرينة وانتهت أدوار التنقيح فيها فلم يبق الا استظهارها والعمل بها. وقد اغتبطت الامة العربية بذلك وعكفت على العمل بها قرونا قضت فيها لبانة للعلم والسياسة وتفرغت للفتوح والاستعمار وملأت طباق الارض بالتصانيف في الشرائع والحكمة وكل ما كان على وجه الارض من العلوم فأنارت الخافقين ونشرت المدنية في الدنيا. ولما ضعف أمرهم ورثهم الغربيون في حكمتهم وأخذوها عنهم وأضافوا اليها ما تجدد من الصناعات والفنون ولا يزال الافرنج يدأبون في اقتناء الكتب العربية ويستخرجون منها من الفوائد مالم يكن في حسباننا ولكل مجتهد نصيب

هذا ما حضرني من النصوص المحتوية عليها كتب العرب، المتضافر عليها من أئمة الأدب، فمن شاء فليؤمن بها ومن شاء فليكفر بها فقد تبين الرشد من الغي

ولما قعدت همم الخالفين وانتشر فساد اللغة مادة وقوانين رأى فريق من الناس أن يكفونا مؤنة التحصيل فهبوا الى فتح ثغور اللغة العربية للدخيل من الالفاظ وطفقوا يحسنون صنيعهم بأقيسة خطابية وجدلية لا تغني من الحق شيئاً

فقالوا أولا : ان العرب أخذوا ألفاظا من الاعاجم في أطوار تنقيح العربية واستعملها الفصحاء وورد منها كثير في القران والأحاديث فما لنا لا ننشئ مذهبا خامسا في التنقيح وفاتهم أن ما أخذه العرب قليل جداً بالنسبة الى ما نبذوه ونادر بالاضافة الى مادة لغتهم الاصلية والقليل النادر لا يقاس عليه فاذا فتحنا اليوم باب القياس في مادة اللغة نفتحه غداً بالاولى في هيئتها أي في الصرف والنحو فنقيس على ما ورد شذوذاً عن العرب اذ ليست المادة بأقل خطورة من الهيئة ولا الجوهر بأدنى احتراما من العرض فننصب خبر المبتدا وخبر انّ ونشتق من الجوامد كلها ونميل الالف حيثما وجدت ونستخرج من كل فعل ثلاثي مزيدات ونستعمل الزيادة لكل المعاني وبالجملة نجعل عالي اللغة العربية سافلها ونحدث فيها الاحداث الهائلة فتتبلبل فيها الالسنة وتفقد بعد قليل من الزمن مع أن « أصحاب اللغات الحية » الذين يريدون أن يتشبهوا بهم لم يرضوا أن يتركوا عاداتهم من الكلام والكتابة ولو كانت خطأ فلا يزالون يقولون في ٧٥ ستون وخمسة عشر وفي ٩٨ أربع عشرينات وثمانية عشر ولا يزالون

يكتبون جملة حروف في الكلمة لا ينطق بشيء منها ويفوهون بحروف لا يكتب منها شيء

وقالوا ثانيا: انه يجب ان يكون لكل مدلول دال خاص به لا يدل على غيره أبدا وتكون دلالته بنفسه لا بعلاقة أخرى وان تسمية المحدثات بلفظ عربي مهما كانت علاقته يوقع في الاشتراك ويزيدنا آلاما الى آلامنا: وغرضهم بذلك منع الاشتراك اللفظي بالمرة أوعدم زيادته وفاتهم ان الاشتراك اللفظي واقع لا محالة في جميع اللغات لان ألفاظ كل لغة محصورة والمعاني غير محصورة فلو وزعت الالفاظ على المعاني وجب المصير الى الاشتراك حتما وانه لا ضرر من استعماله مع القرينة، ففي الهندسة مثلا تستعمل الزاوية والعمود والسطح والهرم والكرة والضلع ولا يخطر في البال شيء من معانيها القديمة، وفي الطبيعة والكيميا تستعمل العدسة والملح والبلورات ولا تحس بأصل معناها، وفي القوانين تستعمل وضع اليد وسحب الورقة وحبس العين والقذف والضبط والربط ولا يجيء في الخاطر معناه الاصلي والذي يسمع جملة «سيارة الامير سبقت القطار» لا يتوهم القافلة ولا الجمال فأين هي الآلام التي تخشون من زيادتها؟ ومن منكم يمكنه ان يتكلم كلاما خاليا من المشترك والمجاز؟ أنا أراهنكم على كتابة عشرة أسطر بأي لغة شئتم في وصف حادثة من الحوادث ذات البال فمن قدر على اخلائها من المجاز والمشترك فله مني عشرة دنانير وأمهلكم شهرا . والحقيقة ان هذه الآلام آلام وهمية توجد عند ما يريد أن يتألم منها

وقالوا ثالثا: ان دلالة الكلم الاعجمية أصرح لانها تدل على صنف مخصوص بخلاف الكلم العربية فانها في الغالب تكون عامة: وفاتهم ان

الاصطلاح يجعل العام خاصا والمطلق مقيدا فالنسافة والبارجة والدارعة والمنطاد لا عموم فيها بعد الاصطلاح عليها وغلبة الاسمية على الوصفية معروفة في اللغات قديما وحديثا فيقولون في السيف أبيض ومرهف وهندي ويماني وفي الرمح أسمر ولدن وسمهري ورديني وكلها أوصاف غلبت عليها الاسمية

وقالوا رابعا : ان التعريب أسهل من انتقاء اللفظ العربي واستعمال الاعجمي أخف على السمع فاذا قلت للبدال « أعطني قدحا من الجعة » اشمأز منك وسخر السامعون بخلاف « البيرا » .وفاتهم أن هذه الصعوبة تزول بعد الاهتداء الى الكلمة العربية والاصطلاح عليها والالحاح في استعمالها لفظا وكتابة على أن هذه الصعوبة انما تكون على الاشخاص المكلفين باستخراج الكلم بخلاف الذين يتعلمونها جديدا فانهم يجدونها بدون عناء كالذي يلبس الثوب لا يحس بعناء حائكه وخائطه وقارىء الصحيفة لا يحس بعناء محررها وجامع حروفها وطابعها . ولا بد من قوم يعانون الاعمال وآخرون ينتفعون بها ونحن لا نكلف أفراد الامة بالاشتغال معنا في انتقاء الالفاظ بل يكفي ان يتعب منا فريق في هذا الامر مقابل تعب الآخرين في أعمال اخرى على قاعدة التبادل المدني أما استهزاء العامة فلا يعوقنا عن العمل لانا لا نعمل لهم بل للخاصة والنشء الجديد الذين يتعلمون في المدارس ، وخالي الذهن يحفظ مايلقى اليه سواء كان اللفظ الذي يحفظه عربيا أو أعجميا ، واني أذكركم أننا كنا نستعمل كلمة قومسيون وقوميتيه وجرنال وغازيته وأفوكاتو وكوليرا وواپور وقنصل جنرال ولما ابتدأ الصحافيون يغيرونها بلجنة وصحيفة ومحام

ووباء وقطار ومعتمد كنا نتقززها فلما ألحوا في استعمالها زال التقزز شيئا فشيئاً حتى عفنا الكلمات الاولى فجازاهم الله عن العربية خيرا . فلم لا يعمل المحدثون من الصحافيين مثل ماعمل الاقدمون؟ ولماذا لا يحذو مترجمو اليوم حذو مترجمي أمس؟ ولم لا نساعد هؤلاء وهؤلاء على اداء ذلك الواجب؟

وقالوا خامسا : ليس لنا أن نتمسك بالقديم لمجرد قدمه: فنقول لهم وليس لنا أن ننبذ القديم لمجرد قدمه فما كل قديم ينبذ ولا كل جديد يؤخذ والواجب على من رأى المصلحة في القديم أن لا يتركه مالم تقم الادلة على أصلحية الجديد وقد جربنا القديم مئات من السنين فقام بالكفاية ولم نر للان منفعة في الالفاظ الجديدة بل الضرر محقق لانا لو فتحنا الباب لدخول الجديد لاستعجم على الخالفين فيهم كل المؤلفات منذ الف سنة الى الآن وانقطع الاتصال بين السابق واللاحق وضاع على المتأخرين تراث اسلافهم المتقدمين

وبعد فاني لم أفهم للآن وجها للتشبث بحب الاعجمي فاما أن نكون مصابين بمرض الشعوبية وهو تفضيل العجم على العرب واما أن نكون لاستضعافنا مقلدين الغالب كما قال ابن خلدون ، واما ان يكون في طباعنا اخلاد الى الراحة والسكون فلا نريد أن نأتي أعمالا جديدة لم نتعودها فتخدعنا هذه الطباع الى تحسين مانحن عليه ونقول بالتعريب لانا يمكننا أن نعرب كل يوم الف كلمة ولا نجد في الشهر عشرين كلمة عربية فيقرر كل منا أن ماوصل اليه هو منتهي الكمال وأن مايزيد عن ذلك يحسب من التقعر والتفيهق ولا يريد ان يعترف بكمال بعد الحد الذي وقف عنده فيسجل

على نفسه النقص ، ان لم يكن هذا ولا ذاك فما سبب هذا التشبث يا ترى ؟
لقد وعيت كل ماسبق من الادلة فلم أجد فيها برهانا فلعل جمود قريحتي ضرب بيني وبين الحقيقة حجابا مستورا

وقد نشأ من التساهل في حياطة اللسان العربي أن تطرق الفساد الى مادته وهيئته وتولد عنه لسان آخر لا هو بالعربي ولا هو بالاعجمي وسماه الناس باللغة العامية أو الدارجة وهو المستعمل لهذا العهد في مصر والشام والعراق وجزيرة العرب والمغرب والسودان لا يتكلمون بغيره وان كانوا لا يزالون يكتبون بالعربية الفصحى او ما يقرب منها

ونرى الطفل يتعلم العامية في أقل من خمس سنين ولا يتعلم الفصحى في أقل من عشر والسبب في ذلك ظاهر وهو انه في أول أمره لا يسمع غير العامية ولا يتكلم بغيرها فهو أينما سار وحيثما ذهب مشتغل بها فترسخ في ذهنه رسوخ الفرنسية في أذهان أطفال الفرنسيس والانكليزية في أذهان أطفال الانكليز وليس الحال كذلك في ابان تعلمه لغة الكتابة ولو فرضنا صبيا نشأ في بلد يتكلم أهله بالعربية الفصحى بالسليقة وبعد سن مخصوص يتعلمون العامية ويستعملونها في الكتابة فقط لانعكس معه الحال وتعلم العامية في أقل من عشر ، فليس من طبيعة اللسان العربي الصحيح شيء من الصعوبة وانما هي طريقة التلقين وبيئة التعليم

وعلى كل حال فالجمع بين العامية والفصحى يستنفد خمس عشرة سنة كان يغني عنها خمس لو اقتصر المعلم على احداهما ويضيع على كل متعلم عشر سنين من عمره فاذا تحققت الآمال وصار التعليم اجباريا فكم تخسر الامة كل سنة من أعمار افرادها ؟ فاذا أخذنا المعدل السنوي للمواليد وهو

٤٧٠٠٠٠ وطرحنا منه معدل وفيات الاطفال الى سن العشرة (ونفرض أنه النصف) ٢٣٥٠٠٠ يكون عدد الباقين ٢٣٥٠٠٠ نضربه في عشرة أعوام وهي مقدار مايخسره كل واحد فتكون النتيجة ان الامة تخسر في كل عام عمل شخص واحد في ٢٣٥٠٠٠٠ سنة وبعبارة أخرى يفوتها ربح زراعة ٢٧٥٠٠٠ر١ فدان على فرض ان الفدان يزرعه اثنان وهي خسارة لا يحسن السكوت عليها * فياضيعة الاعمار تمشي سبهللا *

وقد استنكر الصبر على هذه الخسارة جماعة من الاقتصاديين فاتفقوا على وجوب الاقتصار على تعلم احدى اللغتين واختلفوا في تعيينها فقال فريق منهم يقتصر على العامية ومنهم المهندس الشهير ويلكوكس والقاضي الكبير ويلمور . وقال الفريق الآخر ومنهم العالم الشهير والمربي الكبير يعقوب أرتين (باشا) بالاقتصار على الفصحى

واورد على الاول (١) ان لكل قطر عامية مخصوصة بل لكل مديرية لهجة معينة فاذا رجحنا لغة اقليم تحكما منا نكون قد ألزمنا سكان الاقاليم الاخرى بتعليم لغة ذلك الاقليم وعناؤهم في ذلك لا ينقص عن عناء تعلم العربية الفصحى بل الفصحى أسهل لان كل شيء فيها قد ضبط ونقح ووضعت له كتب متعددة (٢) وان العامية في البلد الواحد تتبدل بتبدل العصور فلكل زمان ألفاظ تدخل مع أصحاب القوة ولذلك نرى في لغة مصر مفردات من الرومية والكردية والتركية والشركسية والفرنسية والانكليزية (٣) وان التزام العامية يحدث حجابا كثيفا دون الاستنباط من القرآن والحديث والمأثور من كلام السلف فتذهب أعمال الاولين هباء وتقع الخسارة على المسلمين وغيرهم ممن يستخرجون كنوز العلوم من

بطون الكتب العربية القديمة ولولا كتب العرب ما أشرق على أوربا ذلك النور الساطع وبالجملة تنقطع الصلة بين الازمنة والامكنة العربية ويحرم ابن هذا الزمان من ثمار أفكار السابقين وقاطن هذا المكان من تبادل آراء المعاصرين من أبناء اللغة الواحدة فلا جرم كان من المتعين نبذ الرأي الويلككسي والاخذ بالمذهب الارتيني

وخلاصة هذا المذهب أن تترك العامة يتكلمون بما يريدون وتدرب التلاميذ في المدارس على التكلم بالفصحى ويجب اليهم التحاور بها كلما اجتمع لفيف منهم حتى ترسخ فيهم ملكتها وتملك ألسنتهم دربتها ويكون أخذهم بالتمرين تدريجيا يطبقون على ما عرفوه ويكملون محاورتهم بالعامية فيما لم يعرفوه وكلما زادت درجتهم في التعليم زادت قوتهم في التطبيق الى أن تهجر العامية وتحل الفصحى محلها

فاذا ضُم الى ذلك مطالعة الصحف والمجلات العربية وسماع الخطب العلمية في النوادي العربية والتردد على معاهد العظات ومشاهد التمثيلات ومواقف المرافعات وتعليم الفتيات واحتذاء أساليب المنشئين وطبع كتب المبرزين فان اللغة العامية تنقرض في أقل من عشرين عاما وتخلفها اللغة الصحيحة ويرجع اللسان العربي الى عصر مجده وأيام سعده

ولقد هم ذلك المربي الكبير منذ عشرين سنة بالزام تلاميذ المدارس بالتكلم بالعربية الفصحى ما داموا تحت نظر معلميهم وأخذ يعد لهذا الامر عدته وعتاده وسألني رأيي في ذلك وكنت معلما في مدرسة الحقوق فقلت له ان الامر ميسور والخطب سهل فطلب الي تجربة ذلك قبل أن يصدر الاوامر فقلت نعم وكرامة ولم يمض شهر حتى دعوته لشهود التجربة مع

من شاء من المفتشين فأسفرت التجربة عن نجاح باهر وارتقاء ظاهر فصمم على امضاء عزيمته لولا احتجاج فريق من المعلمين، بل نفر من العاجزين، بأن التطبيق متعذر قبل حفظ اللغة واتمام القواعد ولولا التوكؤ على هذه المغالطة لكانت العامية الآن، في خبر كاد ان لم تكن في خبر كان،

والذي يسمع كلام الباحثين الاصليين والمنتصرين لهما يخال ان بين الفريقين حربا عوانا وخلافا ما بعده اتفاق . ومنشأ هذا الافتراق الذي حمي وطيسه واحتدم أوراه ان أدلة الفريق الاول تنتج أكثر من المدعى ويجر التسليم بها الى اذهاب اللغة العربية والاتيان بخلق جديد ولولا ذلك لكان الخلاف نظريا لا يترتب عليه أثر ويتضح ذلك اذا حددنا موضع النزاع وحصرناه في الدائرة التي يجب حصره فيها ، واحسن طريق للتحديد سرد مواطن الوفاق حتى نتحاماها اذا التقى الجمعان واليكم البيان

(١) تقسم أولا اللغة العربية الى لغتين لغة عامية ولغة فصحى فالعامية لا يمكن أن تكون محل نزاع لان الباحث الاول يقول بصقل اللفظ الاعجمي ووضعه في القوالب العربية والثاني يقول بعدم الخروج عما ورد فمحل النزاع اذاً اللغة الفصحى

(٢) ثم نقسم اللغة الفصحى الى أجزائها حرف وفعل واسم فالحرف لا يمكن أن يكون محل النزاع لان ما وجد منه كاف واف بحاجة اللغة فلا ضرورة لزيادة نحو «يس» و«نو» و«آند» لوجود نعم ولا وحرف العطف والفعل كذلك غير محتاج للمزيد فلا باعث لزيادة نحو «جون» و«كم» لوجود ما يماثلها في العربية وقد وقع في كلام الباحث الاول [1] ما يفهم منه

(١) هو الشيخ محمد الخضري

رغبته في زيادة أفعال تشتق من الاسماء الاعجمية كأترم وتمبل وأمبس ولعل ذلك فرط منه أثناء احتدام الجدال والا فما وجه تفضيل الاعجمي على العربي ولم يقل أحد بجواز أبغل وأحمر وأفرس والبغل والحمار والفرس أعرق في العربية من الترام اللهم الا أن يكون وجه التفضيل شدة السرعة وعندنا قاعدة مذهبية نبني عليها وهي أنه لا يصار الى التعريب الا اذا ألجأت الحاجة اليه ولا حاجة الى اترم كما لا حاجة الى أبغل لامكان التعبير بركب الترام لو سلمنا بقبول كلمة ترام فمحل النزاع اذاً الاسم

(٣) ثم نقسم الاسم الى ما ينوب عن الفعل كشتان ووي وصه والى مالا ينوب عن الفعل والاول كالفعل لا حاجة الى الزيادة فيه فمحل النزاع اذا الثاني

(٤) ثم نقسم مالا ينوب عن الفعل الى مشتق وجامد فالمشتقات في العربية كافية وهي أصرح من نظائرها في اللغات الاخرى فالنزاع في الجامد

(٥) ثم نقسم الجامد الى اسم معنى واسم ذات فاسماء المعاني كثيرة جداً في العربية حتى عدها الباحث الاول ثروة واسعة فالنزاع في اسم الذات

(٦) ثم نقسم اسم الذات الى ما وضع لمعين بلا واسطة وهو العلم والى ما وضع لمعين بواسطة ملازمة وهو الضمير واسم الاشارة والاسم الموصول والى ما وضع لغير معين وهو اسم الجنس

فالعلم يشمل أسامي الاناسي والبلاد والجبال والانهار والبحار والامم والاقاليم وماله شأن خاص من غيرها ، والاتفاق على انها لا تخص لغة معينة الا باعتبار معناها الاصلي قبل العلمية وانها تبقى على ما وضعه لها واضعها الا لضرورة والضرورة اما أن تكون بوجود حروف أعجمية

لا نظير لها في العربية كالحرف الذي بين الباء والفاء والحرف الذي بين القاء والواو والحرف الذي بين الجيم والقاف والكاف والغين وبعبارة أخرى كجيم القاهرة أوقاف الصعيد وهي قاف تميم والحرف الذي بين الجيم العربية والياء وبعبارة أخرى كجيم المغاربة والحرف الالماني الذي بين الخاء والشين فيبدل الحرف الاعجمي بحرف يقاربه

واما أن تكون بوجود حركات أعجمية لا نظير لها في العربية كالحركة التي بين الفتحة والضمة كما تقول أهل القاهرة خوخ والحركة التي بين الضمة والكسرة عند الفرنسيس فتبدل بحركة عربية تقاربها أما الحركة التي بين الفتحة والكسرة فلها نظير في العربية في لغة نجد وقيس وأسد كما تسمع من القراء فتبقى كما هي أو تبدل بفتحة خالصة والمدبمدها بألف خالصة

واما باشتمال العلم على ما لا تجيزه أصول العربية كالابتداء بساكن وكالانتهاء بواو ساكنة قبلها ضمة وكالانتهاء بواو أو ياء بعد حرف مد فيحرك الساكن أو يتوصل اليه بهمزة وصل ويحرك احد الساكنين وتقلب الواو الساكنة ياء والضمة قبلها كسرة أو تحذف وتقلب الواو أو الياء المتطرفة بعد مدة همزة وهذا التغيير هو الذي يسمى صقلا أو وضعا في القوالب العربية فالعلم موضع اتفاق بين الباحثين أيضاً

والضمائر واسماء الاشارات والاسماء الموصولة كافية بل فيها زيادة عن نظائرها في اللغات الاخرى فلا حاجة للزيادة فيها وانما النزاع في اسم الجنس كما صرح الباحث الاول مرارا

(٧) ثم نقسم اسم الجنس الى ما استعملت له العرب لفظا سواء

وضعته له من عندها أو عربته من لغة غيرها والى ما لم تستعمل له لفظا والاول يقبل ولا ينظر الى أصل اللفظ قبل التعريب لان التعريب جعله في حكم العربي فليس موضع نزاع والنزاع فيما لم تستعمل له العرب لفظا

(٨) ثم نقسم ما لم تستعمل له العرب لفظا الى ما اصطلح المولدون على اطلاق لفظ عربي عليه بأي مناسبة كانت كنسافة وغواصة ودارعة وقطار ولا خلاف بين الباحثين في قبوله ، والى مالم يصطلحوا على اطلاق لفظ عليه للآن ولا خلاف بين الباحثين في انه يجب البحث والتنقيب في كتب اللغة عن لفظ عربي يمكن اطلاقه عليه بأي مناسبة من المناسبات الجائزة في اللغة العربية ويصطلح على دلالته عليه كما اصطلح من قبلنا على لفظ نسافة وغواصة

ولم يقل أحد منهما بتعطيل حركات الخطابة والكتابة ودواوين الانشاء وصحف الاخبار في مدة البحث والتنقيب بل لا بد من ملء الفراغ بلفظ أعجمي واستعماله موقتا للضرورة كما يفعل الطالب الذي ينتقل بالتعليم تدريجا من لغة العامة الى اللغة الفصحى

فاذا انقضى دور البحث ولم يعثر على كلمة عربية يمكن الاصطلاح عليها وهو مالا يكون الا نادرا تصقل الكلمة وتستعمل وحينئذ يراها الباحث الاول بالمنظار الذي يرى به المعربات التي صقلتها العرب ويقول قد احتطت وما فرطت فرحباً بالدخيل العتيد ، وبعدا للاصيل الشريد ، ومالي أشغل آمالي بنشد ضالة ان جاءت فلا كرامة ، وان ذهبت فلا شيعتها غمامة ، ويراها الباحث الثاني بمنظار آخر غير ما يرى به المعربات فيحسبها كارقعة

في الثوب والحصاة بين الدر ويقول للضرورة أحكام ، وحبذا لو صحت الاحلام ، ووجدت طلبتي في يوم من الايام ،

هذا هو الخلاف الطويل العريض ضيق البحث حلقاته رويداً حتى تضاءل وانتهى الى تقدير النظر الى الكلمة المجتلبة واستقبالها امابالترحيب، واما بالتقطيب ، وهو خلاف غريب،   حفني ناصف



باب المناظرة والمراسله

﴿ السنن والاحاديث النبوية ﴾

جاءتنا هذه الرسالة من الشيخ صالح بن علي اليافعي أحد العلماء الغيورين في حيدرا باد الدكن يرد فيها على الدكتور محمد توفيق افندي صدقي فيما كتبه في النسخ وكون الاحاديث ليست من أصول الدين ولطولها ننشرها بالتدريج مبتدئين بمقدمتها التمهيدية وهي :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الحمدلله الذي أرسل محمداً بالهدى ودين الحق،وجعل له لسان الصدق، صلى الله عليه وعلى آله واصحابه ، ومتبعيه وأنصاره واحزابه ،

أما بعد فاني قد وقفت على رسائل لحضرة العالم الباحث الدكتور محمد توفيق افندي صدقي كان يرمي فيها أولا الى أن الاسلام بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم هو القرآن مجرداً عن بيان الرسول(ص) وتعاليمه غير معتبر لما زاده الله على مافي القرآن من أحكامه ولازم قوله بل صراحته دالة على محو صورة الاسلام الموجودة وجواز تشكيله ا.

شاء بأي صورة شاء، وكأنه استشعر شناعة ذلك فأعلن رجوعه عن اطلاق القول في رد جميع السنن وخص منها قبول السنن الفعلية التي نقلتها الامة بالاجماع او بالتواتر. وردّ جميع السنة القولية زاعما أنها آحاد وما تواتر منها ليس فيه شيء من الاحكام

وقوله هذا - وان كان أهون من قوله السابق ظاهرا - مآله وحقيقته بعد التزامه ثم تطبيقه على ما في نفس الامر الواقع هو حقيقة قوله الاول من رد اكثر السنن الفعلية بل لا يبعد اذا قلنا كلها لانه ما من فعل نقل الينا من تلك الافعال الا وقد اختلف في هيآته وأحكامه المقومة لحقيقته . والمسلمون الناقلون لتلك الاعمال انما كان مستند اختلافهم في ذلك اما السنن القولية واما اجتهاد من يتأتى له الاجتهاد منهم فاذا لم يجب أن تكون سنن الرسول (ص) القولية من الدين فلأن لاتكون مجهودات غيره من الدين أولى وأحرى

واذا كان كل فعل من السنن الفعلية قد اختلفت في صفاته وهيآته الطوائف والمذاهب بحيث يكون حقيقة هذا الفعل عند هؤلاء غير حقيقته عند أولئك - واذا كان المستند السنن القولية أو الاجتهاد وسلمنا أن كلا منهما ليس من الدين - لزم أن لا يعلم المتعين أخذه وأن لا يجب عمل مخصوص للزوم انتفاء المدلول بانتفاء دليله والمسبب بانتفاء سببه اذ لا دليل ولا سبب لوجوب أو حرمة أو ندب أو كراهة الا السنن القولية المفسرة للقرآن والناصة على أحكام الاعمال فاذا انتفت انتفى كل ذلك وجاز لمن شاء أن يقول ان الواجب من الاعمال كذا وكذا وان معنى القرآن ومراده ذا اوذا كيف شاء فعاد الامر في جميع أمور الدين

الى الاجمال والابهام ولزم الانسلاخ عن دين الاسلام وهذا هو ماتحاشا عنه كل من يؤمن بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم

والحقير قد نبه حضرة الدكتور في رسالة ارسلتها الى حضرة سيدنا منشئ المنار الاغر ولكنه أرسل الي مكتوبا يذكر فيه ان بعض تلك الرسالة ضاع عنه ويطلب ارسال ذلك اليه ليطبع الرسالة ولكني اعتذرت حيث لم يبق لدي منها شيء لاني ارسلت الى حضرته المسودة. ولما كتب حضرة الدكتور رسالته الاخرى التي طبعت في المنار (الجزء التاسع من المجلد العاشر) بعنوان (النسخ في الشرائع الالهية) رأيته صدر رسالته بالكلام على حقيقة النسخ واختار القول بجوازه عقلا وشرعا ووقوعه في الشرائع الالهية والقوانين الوضعية البشرية وهذا شيء لا تنازعه فيه لكنه انكر وقوعه في القرآن فعلا وخص ذلك بالسنة النبوية ثم تدرج من مسئلة النسخ الى تقسيم السنة الى قسميها فعلية وقولية وكل منهما الى متواتر وآحاد تمهيدا لما خلاصته ان القولية لا سيما الآحاد منها لا يجب العمل به بعد زمن رسول الله (ص) وزعم ان السنن القولية مطلقا انما هي شريعة وقتية تمهيدية لشريعة القرآن الثابتة الباقية وعلل ذلك بالنهي عن كتابتها وزعم ان النبي (ص) واصحابه لم يعاملوها بالعناية التي عومل بها القرآن قصدا منهم لان تندثر وتزول من بين المسلمين فلا يعملون بها

هذه خلاصة قوله لكنه يظهر من تناقض كلامه وجوب العمل وقبول ما كان متواترا من ذلك لا ما نقل آحادا سواء كان حسنا أو صحيحا أو مشهوراً أو مستفيضا

وحيث كان ذلك مخالفا لدين الاسلام فيما أعتقد بل

الآحاد الصحيح بجميع اقسامه مستلزم للطعن في القرآن وتكذيبه ومخالف لجماهير المسلمين بل لجميعهم بل لجميع الاديان والملل وسائر متبعيها بل مخالف لما عليه مدار الاجتماع البشري كل ذلك على ما أعتقد ولا احسب ان احدا ممن عرف بالعلم والعقل لحضرة الدكتور يخالفني وينازعني في ذلك بعد التفكر وبشرط الانصاف - حيث كان الامر كذلك فيما أعتقد بعثني حب اظهار الحق والتعاون على البر والنصيحة الى مناقشة حضرة الاخ الدكتور فيما كتبه في رسالته مما رأيته خلاف الصواب لما عرفت من حسن نيته ورجوعه الى الحق كما هي عادته

وألتمس من مولانا المرشد وسيدنا العلامة القدوة داعي الانام، لاتباع حقيقة الاسلام، منشي المنار مولانا حضرة السيد محمد رشيد رضا وأرجوه أن يدرج هذه البضاعة المزجاة في مناره، وان يسقط مافيها من الغلط بصائب أفكاره، وان يشركنا في صالح دعواته، ولنعد لما كنا بصدده من الشروع في المقصود فنقول : (سيأتي المقصد)

تنبيه للمستفتين

اذا أراد المستفتي ان لا يتأخر نشر سؤاله والاجابة عنه فليكتبه على ورقة مستقلة ولا يجعله في غمرة كتاب آخر فيكلفنا استخراجه منه اذ ربما تمر الشهور ولا نجد وقتاً لنسخه . ومن سأل في ورقة واحدة عدة أسئلة فليفصل بينها في الكتابة فيبتدئ كل سؤال بسطر جديد . وليكن الخط واضحا . ومن علم ان في عبارته غلطا فليأذن لنا بتصحيحها ان شاء والا نشرناها على علاتها اوأهملناها

الفصل الأول (*)

﴿ مكة وحالة قريش الاجتماعية عند البعثة ﴾

نشأت خديجة في بلد شأنه عجيب ، قصي عن العمران ، في واد غير زرع ، لا تنساب فيه الأمواه ، ولا تكتنفه الحدائق، ولا تقوم الصناعات فيه دولة ، ولا يجد مبتغي الزخارف لديه مجالا ، ولكن أبدله الله جمالا معنويا، وكساه جلالا روحانياً ، فالافئدة تهوى اليه، والمطايا تزجى له من كل فج عميق ،

هذه البلدة المقصودة هي « مكة » المكرمة الشهيرة التي لا يجهل اسمها وشهرتها أحد، هي أم البلاد العربية واقعة في القطعة المسماة الحجاز من شبه جزيرة العرب ، قائمة بيوتها في سفوح جبال محيطة بها

لم نقف على مقدار عدد نفوسها في تلك الأيام التي نشأت فيها خديجة ولكن عدد مقاتلتها لم يكن يتجاوز الالفين في الغالب فيمكننا ان نحزر أهليها اذ ذاك بنحو خمسة عشر ألفا كلهم أولاد أب واحد قد ورثوا باستعدادهم لا بنسبهم هذا المقام الكريم والبلد الشريف ممن كان قبلهم من القبائل .وذلك أن قصي بن كلاب استطاع ان يجمع جميع ذراري فهر بن مالك الى مكة ويزاحم بهم من كان فيها من القبائل فلم تلبث ان صارت لهم خاصة

*) من رواية خديجة أم المؤمنين

وفي مكة هـذه بيت مقدس قديم العهـد يكاد يكون أول أمره مجهولا عند المشتغلين بالتاريخ اسـمه بيت الله أو الكعبة . وكان جميع عرب الحجاز يعظمون هذا البيت أكثر من كل البيوت التي شرفوها ويحجون اليه ، ويتمارفون ويتعاطفون لديه

كانت هذه البلدة المشرفة تضم بين تلك الجبال المهيبة أمة صالحة الاستعداد للرقي متى أريت طريقه كما تضم الصدفة جوهرة لايظهر بهاؤها ورواؤها حتى تعالج بمض المعالجة وتزال عنها القشور أمَّا من حيث الحضارة فلم تـكن كما ينتظر ابن حضارة هـذا العصر من البلدان وانما هي بيوت ساذجة مبنية بالحجارة واللبن ومسقوفة بجذوع النخل خالية من الزخرف

وهذا البلد الامين باق الى يومنا هـذا لم يزدد على طول القرون الا تشريفاً وتكريماً ولم يتغير فيـه الا أشكال الابنيـة وازدياد التجارة والبيت المشرف لم يتغـير وضعه ولا وضع الشعائر التي حوله وانما بني هنالك زيادات وتحسينات اقتضتها الدواعي

ومكة معدودة اليوم من جملة بلاد الدولة العلية العثمانية بيدانها لم تحرم حتى الآن من أمير عربي يتصل نسبه بسيدتنا خديجة هذه ، ونفوذه فيها وفيما حولها نفوذ تام يستمده من السلطان العثماني ومن احترام العرب لهذه السلالة

ومن الآثار المشهورة الباقية في مكة بئر زمزم ويقولون ان قبيلة جرهم كانت دفنتها ثم احتفرها عبد المطلب بن هاشم جـد النبي (ص) وكان ذلك من مفاخر عبد المطلب لأنه لم يكن بمكة من ماء الا في آبار

بعيدة عن البيت المشرف فلما أخرج عبد المطلب زمزم في جوار البيت انصرف الحاج اليها . ولحفر زمزم حديث طويل خلاصته تدل على شغف عبد المطلب بتسهيل الماء على الحجاج فاذا تأملنا في حرص القوم على مثل هذه العناية بالغرباء وابناء السبيل نعلم شيئاً من روح تربية الهمم وترقية العواطف في ذلك المجتمع الذي نشأت فيه «خديجة »

وكان من جيد أمر أهلها في مجتمعهم ذلك انهم اقتسموا النظر في الامور العمومية فيما بينهم فكأنهم كوّنوا حكومة جمهورية من غير رئيس عام وكان أمر هذه الجمهورية الغريبة الوضع سائراً على منتهى النظام ولكن لم يكن هذا النظام لسرّ في ترتيب هذه الجمهورية فانها لا يؤمل منها في حداثتها ان تثمر نظاماً بالغاً منتهى الجودة والقوة وانما ذلك أثر من آثار تربيتهم العمومية فالاخبار كلها دالة على ان القوم بالجملة كانوا كأنهم مفطورون على التضامن التام فلذلك كان من مزايا ذلك الاجتماع الذي لا نعهد له نظيراً ان كلّ فرد من أفراده تام الحرية لا يشعر بقهر حاكم ولا يخشى سطوة جبار وكل منهم في أمن من فوات الحقوق واعتداء الحدود . الجنايات قليلة ، وكرامة الناس محفوظة ، والآداب سليمة ، والحدود غير متجاوزة ، والحقوق مصونة ، وذرائع الفساد مسدودة ، وسلامة الفطر غالبة ، والمزايا التي بها كمال الانسانية راجحة .

فاذا أضفنا الى كل ذلك احترام الغريب وتوقيره اياهم وتوقيه أذاهم نجد ان ذلك المجتمع لا يكاد يوجد نظيره ولكن مع كل هذا الجمال والحسن والصلاح في هذا المجتمع كان فيه عيوب فاذا أزيلت يصبح اول مجتمع

راق في الدنيا وخليقاً ان يفيض على جيرانه من بركات العقول التي أشربت بديع جماله، وأشرأبت الى عظيم كماله، ثم تاقت الى تعريف العالم بما أكنت تلك البقعة التي لم تكن شيئاً مذكوراً من العقول المنيرة والارواح العالية

وقد وقع ذلك فمن الذي منه تنشأ الاسباب واليه ترجع الامور قد أتاح لهذا البلد الجمهوري، من ينظفه من تلك العيوب التي اشرنا اليها فكان بعد ذلك كما هو المنتظر منه أي تم ظهوره فصار مشرقاً لنور عظيم بلغ مشارق الارض ومغاربها فأخذ كل قوم منه بقدر استعدادهم

اما الجمهورية التي أشرنا الى انها كانت في هذا البلد فقد أقاموها على على أساس يأمنون معه من الزلزال وذلك انهم رأوا الشرف انتهى الى عشرة رهط من عشرة بطون لاشتهارهم بأعمال مجيدة، ثم اجمعوا امرهم على ان يكون النظر في الامور العمومية من خصائص هذه البيوت العشرة وتراضوا على ان يكون لكل بيت من هذه العشرة وظيفة يختص بها تعد من مفاخره فهم بهذا الصنيع قد أخذوا بشيء من أصول حكم الاشراف وبذلك أعطوا الاعمال التي يمجدها الفرد أو الاسرة حقها من التكريم والتشريف ليزداد نشاط أربابها وحرص غيرهم على التشبه بهم وأخذوا أيضاً بشيء من أصول الحكم النيابي وهو أعظم الآيات على وجود التضامن الذي هو أحد الاركان التي تحفظ بها سعادة الامم .

أما الشورى فقد وفّروا منهم حظها، وعظموا في أنفسهم حقها، وبها كانوا يشرعون ما يشرعون من الاحكام والحدود ،ويفصلون ما يفصلون في بعض القضايا والحقوق

وقد ألغوا الرئاسة العامة من بينهم كأنهم عدّوها لغواً اذا صدقوا

في تضامنهم وصلحوا في تشاورهم وارادتهم الحق وقليلة الجدوى اذا مرض تضامنهم ووهي نظامهم . أو أنهم خشوا أن يكون حب الرئاسة اذا وجدت مدعاة لكثرة تنازعهم وتنافسهم فلا يأمنون بمد ذلك كثرة الفشل والشقاق وسقوط الهيبة من نفوس الغرباء ووقوع الفتور في نفوس الأقربين . أو أنهم أنفوا أن يملكوا عليهم أحداً لأنهم كلهم يحملون بين أضالعهم نفوس الملوك وجمهوريتهم هذه لم يكن لها رئيس عام ولكن كانوا يقيمون واحداً في وظيفة رئيس عام موقتاً

أهل هذا المجتمع اللطيف لم يكونوا أولي شغف بالمحاربات فعلاقاتهم الخارجية مع جيرانهم من القبائل وأهل القرى والبلاد كانت حسنة ولكن هذا لم يقعدهم عن أن يكون استعدادهم تاماً لما ينزل بهم فان نزل بهم مايطيقونه كشفوا اللثم عن قوتهم وبرزوا من غير تريث وان نزل بهم مالا قبل لهم به تريثوا وعمدوا الى الاناة وفتقوا من الحيلة أبوابا يخرجون منها الى السعة من الضيق ومن فل الجيوش بالحسام الى فلها بالبيان وقد أعطوا من هذا حظاً عظيماً . ومن أشهر حوادثهم الخارجية التي ضاقوا بها ذرعا هجوم القائد الحبشي أبرهة الذي كان غلب على بعض بلاد اليمن فتددهمهم بجيش عظيم لم يروا لانفسهم طاقة به فقابله عبد المطلب جد النبي (ص) وكان يومئذ رئيس قريش فأحسن مقابلته ولطف بعض الشيء من حدته التي كان بها مسوقا لهدم « بيت الله » على زعمه لاسباب فصلها رواة الاخبار ثم أصابته داهية سماوية فقفل بجيشه ثانياً عزمه لانه رأى في اهل هذا البلد مالم يكن يخطر له في بال

نعم رأى في مقدمه هذا على هؤلاء القوم عجباً من الأمر وذلك

انه لما أتاهم أرسل اليهم رجلا حميرياً كان معه اسمه حناطة وأوصاه ان يسأل عن سيد أهل هذا البلد وشريفها فيبلغه ان الملك لا يريد الحرب وانما جاء لهدم هذا البيت فلما دخل حناطة مكة سأل عن سيد قريش وشريفها فدلوه على عبد المطلب بن هاشم فجاءه وبلغه ما أمره به أبرهة فكان جواب عبد المطلب اننا لا نريد حربه قال حناطة انه أوصاني ان يريد مواجهتك ان لم تريدوا الحرب فانطلق عبد المطلب مع حناطة اليه فلما رآه أبرهة رأى الوسامة والجلال فأعظمه واكرمه وأخذه الى جانبه وقال للترجمان سله أن يقول مايبدو له فلم يكن من عبد المطلب الا أنه صرف لسانه عن الخوض في عزم القائد على هدم البيت وجداله فيه بل أظهر الاقتناع بضرورة المسالمة وعدم معارضة القائد في أمر هذا المعبد وقال له اذا لم يكن لك غير هذا الأرب فردّ علينا أبانا قال أبرهة للترجمان قل له قد كنت أعجبتني حين رأيتك ثم قد زهدت فيك حين كلمتني أتكلمني في الاموال وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك فأجابه عبد المطلب إننا نحن أرباب المال وأما البيت فله رب هو سيمنعه فقال له انه ماكان ليمتنع مني فأجابه أنت وذاك ورد ابرهة الابل على عبد المطلب وبقي مصرّا على عزمه ورجع عبد المطلب على قريش فأمرهم ان يعتصموا بالجبال، ولا يأتوا أمراً حتى يروا ماذا يكون وقدأتى من لدن العناية الغيبية ما لم يكن في الحساب فان أبرهة لما أصبح وتهيأ لدخول مكة برك الفيل الذي كان يركبه وحرن واتوا كل باب من أبواب الحيل ليقوم ويمشي تلقاء مكة فلم يقم ثم رأوا حجارة تسقط عليهم من أرجل صنف من الطير فتشاءم ابرهة وتذكر ما انذره به ذلك الرجل الجليل السني

الطلمة عبد المطلب من حماية هذاالبيت بطريقة لا يبلغها عقله نخمدت في صدره جذوة الحدة والتهور وخذل أمامهؤلاءالقومالذين حاربوه بالسلم ورموا عقله بسهم نافذمن بيان عبد المطلب مع رمي الطير جيشه بحجارة من سجيل

وهذه أكبر حوادثهم الخارجية واشهرها ٠وفي عام هذه الحادثة ولد النبي (ص) وقد سموه عام الفيل لما ذكرنا من قصته ورجال هذه الحملة قد عرفوا بعدها باسم أصحاب الفيل وقد أشيرالى مجملهذه الحادثة في القرآن المجيد



الفصل الثاني

(بيوتات قريش وخصائصها)

أما بيوت شرفهم العشرة فهي :

هاشم ، وامية ، ونوفل ، وعبد الدار ، واسد ، وتيم ، ومخزوم ، وعدي ، وجمح ، وسهم ،

واما الامور التي كان توليها من خصائص هؤلاء فهي : السقاية ، والعمارة ، والعقاب ،والرفادة ،والحجابة ،والسدانة ،والندوة ،والمشورة ، والاشناق ، والقبة ، والاعنة ،والسفارة ،والايسار ،والاموال المحجرة ،

هذه الاسماء أكثرها اصطلاحي يحتاج الى تفسير يوافق العصر الذي نحن فيه حتى نفهم شكل ذلك المجتمع الذي سميناه جهوريًا على حسب اصطلاح عصرنا

فأما السقاية فقد تفهم من اللفظ نفسه أي سقاية الحجاج الذين كانوا يأتون « بيت الله » من كل جانب ولا يخفى على أحد ان العناية بهؤلاء الغرباء وتوزيع المياه عليهم من أهم الامور العمومية في ذلك الظرف وكان بنو هاشم هم أهل هذه الوظيفة

وأما العمارة فهي منع من يتكلم في « بيت الله » بكلام سفيه قبيح أو يرفع فيه صوته وكانت هـذه الوظيفة أيضاً في بني هاشم الذين منهم العباس صاحبها

وأما العقاب فهي راية قريش كان من شأنهم فيها انهم يحفظونها في بيت من البيوت العشرة فاذا وقعت حرب أخرجوها فان اتفقوا على أحد منهم اعطوه راية العقاب وان لم يجتمعوا على أحد رأسوا صاحبها فقدموه وقد كانت هذه الوظيفة أي حفظ هذه الراية من خصائص بني أمية الذين منهم أبو سفيان صاحبها

واما الرفادة فمعناها الاسعاف وكانوا يجمعون من أنفسهم أموالا لرفد المنقطعين من الحجاج وكانت الرفادة في بني نوفل الذين منهم الحارث بن عامر صاحبها

واما السدانة والحجابة فمناها خدمة « بيت الله » وحفظ مفتاحه والظاهر من هذه الوظيفة انها دينية ولكن متولي هذه الوظيفة الدينية مشترك مع عشيرته بتدبير الشؤون الاجتماعية وهذا العمل الديني نفسه قد كان عند القوم من أهم الامور العمومية في مدنيتهم وجمهوريتهم

وقد نستطيع ان نشبهها من بعض الوجوه بوظائف كبار رؤساء الدين في الامم المتمدنة اليوم ولا يخفى ان وظائفهم من متممات مدنيتهم، ولمن

يتولونها شأن يذكر عندهم . وقد كانت الحجابة والسدانة في بني عبد الدار الذين منهم عثمان بن طلحة صاحبها

واما الندوة فمعناها ظاهر من اللفظ نفسه وكانت دار الندوة في بني عبد الدار ايضاً

واما المشورة فيريدون بها رئاسة الشورى وليس ببعيد عن الصواب اذا شبهناها من بعض الوجوه برآسة الوزراء أو رآسة مجلس الاعيان وكانت هذه الوظيفة من خصائص بني أسد وكان يتولاها منهم يزيد بن زمعة ابن الاسود وكان من شأنهم في هذه الوظيفة ان رؤساء قريش كانوا لا يجتمعون على أمر حتى يعرضوه على صاحب هذه الوظيفة فان أعجبه وافقهم عليه والا تخير وكانوا له أعواناً

واما الاشناق فهي الديات والمغارم فقد كانوا يساعدون من يستحق المساعدة ممن حمل مغرماً اودية وكان النهوض مع صاحب المغرم لجمع المطلوب من خصائص بني تيم الذين منهم أبو بكر الصديق فكان أبو بكر اذا نهض مع أحد صدقه قريش واعانوا من نهض معه وان نهض غيره خذلوه

واما القبة فأشبه شيء بنظارة الحربية ولكن كانوا يعمدون اليها وقت الحرب فقط ولعل ذلك لسذاجة الحرب اذ ذاك أو لاستعدادهم لها كل وقت اذا تأججت نيرانها وقد كانوا يضربون قبة فيجمعون اليها ما يجهزون به الجيش وكان ذلك من خصائص بني مخزوم الذين منهم خالد بن الوليد صاحبها

واما الاعنة فمعناها رئاسة الخيالة وكانت هذه الوظيفة للمخزومي أيضاً وخالد صاحب هذه الوظيفة هو ذلك الفاتح العظيم القائد العام في

الاسلام لجيوش أبي بكر خليفة النبي عليه الصلاة والسلام وما أظن تاريخ فنّ التعبئة اليوم يخلو من الاستئناس بذكر تلك التدابير المخزومية التي كان لها شأن عظيم في الاسلام كما هو شأنها في الجاهلية (أو الجمهورية)

وأما السفارة فالمراد بها ظاهر، وقد كانوا يحتاجون الى السفارة في الحروب أي في أوائلها أو بعد شبوب نارها وتعاظم أوزارها ويحتاجون اليها اذا نافرهم حي للمفاخرة . وقد كانت هذه الوظيفة من خصائص بني عدي الذين منهم عمر بن الخطاب صاحبها وناهيك بذلك الخليفة الثاني الشهير بكل منقبة صالحة اذا كان سفير قوم

وأما الايسار فهي الأزلام والقداح كانوا يضربون بها اذا أرادوا أمراً وكان هذا من خرافاتهم وعيوبهم ويحق لنا أن نبالغ في استهجان هذه الخرافة التي كانوا عليها الا أن يكون لهم شيء من النظر من وراء الخرافة كما هو الحال في كثير من الامور الباطلة التي تروج في الامم بسماح من العقلاء أو بترويج منهم لها وقد كانت هذه الوظيفة لبني جمح الذين منهم صفوان بن أمية صاحبها

واما الاموال المحجرة فهي الاموال التي سموها لآلهتهم ويصح أن تسمى هذه الاموال أم الاوقاف الخيرية اي ان بينهما تشابهاً . وقد كانت هذه الوظيفة أي تولي النظر في الاموال المحجرة من خصائص بني سهم الذين منهم الحارث بن قيس صاحبها

هذا ماكان من حيث ترتيب التضامن واقتسام الاعمال المهمة . واما الامور الجزئية التي كان الافراد يختلفون فيها فتفصل فيها كبار أسرهم وعشائرهم في الغالب على طريقة التحكيم ولم يكن للقوم من شريعة مكتوبة

وانما كانوا يقضون في الامر كما يبدو لهم الصواب فيه ويقيسون الامور باشباهها

وهنا يخطر في بال القارئ أن يسأل عن الضعيف الذي لا يأوي الى ركن شديد من رهطه كيف كان حاله اذا أهين أو ظلم في ذلك المجتمع الذي لا شريعة فيه مكتوبة ولا قوة عمومية من شأنها وخصائصها دفع القوي عن الضعيف . وقد بحثنا في هذه المسألة المهمة فوجدنا القوم لم ينسوها ولم يهملوا شأنها وذلك انهم قرروا في مؤتمر لهم حماية الضعيف والذود عنه وكان من حديث ذلك المؤتمر ان قبائل من قريش اجتمعت في دار عبد الله بن جدعان الشهير وتعاهدوا وتعاقدوا على أن لا يجدوا في مكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس الا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته فسمت قريش ذلك حلف الفضول وكانت الارهاط المتعاقدة بني هاشم وبني المطلب وبني أسد بن عبد العزي وبني زهرة بن كلاب وبني تيم بن مرة

نعم كان من النقص في نظامهم أن لا تكون حماية الضعيف من خصائص الجمهور ولكن يظهر انهم كانوا يكتفون في الضعيف بأن يجيره واحد من بيوت العزة والقوة فانه يصير مثل مجيره في نظر الجمهور فلا يجسر أحد أن يبغي عليه

ويمكننا ان نستخلص من كل ما تقدم ان القوم كان لهم شبه قانون أساسي الا انه غير مكتوب ولم يكن لهم قوانين مدنية أو جنائية قط . والأمر في الامور المدنية سهل في المجتمعات البسيطة الصغيرة فكل انسان يستطيع فيها ان يحتفظ بحقوقه أو يستعين عليها بالتحكيم وما أشبهه . واما الحوادث

الجنائية فلا يجوز اهمالها وتركها من غير ان يتولى الفصل فيها أناس مقيدون بقوة تنفيذية مخافة ان تكثر الجنايات ولكن تكافؤ القوى في العشائر والبطون المتساكنين في بلد واحد قد يكون مانعاً من كثرة الجنايات واذا اضيف الى ذلك صلاح الاخلاق والتربية العمومية كان هذا نعم الظهير على تقليل العدوان وقد كان القوم يتواصون باجتناب الظلم ولاسيما في البلد الامين ومن وصاياهم في ذلك قول إحدى نسائهم توصي ابنا لها:

أبنيّ لا تظلم بمكـ ـة لا الصغير ولا الكبير
واحفظ محارمها بنيّ ولا يغرنك الغرور
أبنيّ من يظلم بمكـ ـة يلق أطراف الشرور
أبنيّ يضرب وجهه ويلح بخديه السعير
أبنيّ قد جربتها فوجدت ظالمها يبور
الله آمنها وما بنيت بعرصتها قصور
والله آمن طيرها والعصم تأمن في ثبير

وتواصيهم بالنهي عن الظلم يغرينا بتعرف فلسفة القوم التي كانت تحثهم على مثل هذا

الفصل الثالث

ديانة أهل مكة عند البعثة

ويظهر لنا انهم طرقوا كسائر الامم باب الضالة المنشودة وهي معرفة ما هي نفوسنا ومن أين مبدأها والى اين منتهاها وماذا يزكيها وماذا يدسيها نعم طرقوا هذا الباب ولكن يفتح لهم عن الطريق الموصل الى

هذه الحقائق المكنونة بل كان نصيبهم كنصيب الا كثرين ظنوناً ورجماً بالغيب

أدرك القوم ان للعالم خالقاً ومدبراً هو الذي خلق السموات والارض وما فيهن ، وهو الذي خلق السمع والابصار والافئدة ، وقالوا كما يقول سواهم انه تستحب الرغبة اليه والرهبة منه ولكن في هذا السبيل تاهوا فتركوا هاهنا العقل والتفكر وقلدوا الامم واتخذوا من الحجارة أوثاناً وقالوا ان تعظيم هذه الاوثان يقرب الى الله لان هذه الاوثان تماثيل أو كتماثيل لأناس صالحين محبوبين عند الله فتعظيمهم الى درجة العبادة يقرب الى الله

لقد غلطوا في ظنهم ان الله يحب هذه الحجارة . وأخطأوا بزعمهم ان تنزيل المقول الى تعظيم هذا الجماد (بهذه الصورة) تعظيماً قلبياً يرضي الله تعالى . وحادوا عن الحق بتخيلهم ان هؤلاء يشفعون لهم عند الله تعالى

وقد كان الواجب ان لا يكون في قلوبهم حب وعبودة الا للحي القيوم ولم يكن جائزاً ان يشركوا به الجماد ،

وكان لهم أغلاط أخرى كثيرة في ذات الله سبحانه وصفاته وأفعاله فقد زعم بعضهم ان الملائكة بناته ، وزعم بعضهم ان الجن شركاؤه في الملك وظنوا جميعهم ان لن يبعث الله بشراً ليعلمهم ويزكيهم ،

غلطوا في كل هذا وتسفلت فيه عقولهم ولكن اعتقادهم بأن للعالم صانعاً مدبراً عظيماً هو رب الكل وانه يجب ان يتقرب اليه العبيد قدرقق على ما فيه من النقص والبعد عن الطريق القويم قلوب كثير منهم وكأنه أعدها لقبول حق سيظهر نوره فيمحق خطيئاتهم الاعتقادية

والمشهور ان القوم لم يكونوا يقولون بالمعاد والجزاء الاخروي ولكن الحقيقة أنهم كانوا في ريب وشك أي لم يكونوا جازمين بشيء في هذا الباب وكان أناس منهم تذهب بهم عقولهم الى وجوب المعاد والجزاء الاخروي ولكن عدم اعتقادهم بالجزاء الاخروي لم يكن مانعاً من ان تكون قلوبهم منجذبة الى الاخلاق والاعمال الطيبة التي تحث على مثلها الديانات من البر والاحسان والعدل والصدق والكرم وحماية الضعيف وترك العدوان والابتعاد عن الخيانة والبغي وما أشبه هذه المناقب وعقولهم انما طرأ عليها التسفل الى تعظيم الجماد لان الوثنية هي الغالبة في عصرهم ولا يبعد عن الصواب من يقول ان الوثنية هي الغالبة على طباع البشر كلهم الا قليلاً

فاذا صرفنا نظراً عن تلوث عقولهم بنزغات الوثنية لا نجد من بعدها هذه العقول مظلمة وهي التي اضاءت لهم فعرفوا بها الاخلاق الصالحة والفاسدة ولم يكن يعوزهم الا ان يقوم فيهم مرشد يهديهم للتي هي أقوم من طرائق الاعتقاد بالله وصفاته والتقرب اليه بتوجيه الوجه واسلام القلب اليه ولولا ان للقوم عقولا صافية لما رجي لمجيء المرشد من فائدة لانه لا يظهر نور الارشاد الا في اللوح النقي ولكن الرجاء بالقوم في محله فانه لما جاء المرشد لقي أراضي في منتهى الاستعداد لما أراد أن يلقي البذار والى جانبها أراض أخرى فيها من أعشاب التمسك بالقديم ما يحتاج الى زمن في معالجة ازالته وقليل من الاراضي كانت سبخة ليس في الامكان أن ينتج فيها البذار

لا يهولنك من القوم سقم عقولهم فيما كانوا يعتقدون فان البشر

كلهم الا قليلاً كانوا ولا يزالون يعتقدون أمثال معتقدات القوم فوا أسفاه ان هذا العيب عام وراسخ في البشر ومن أصعب الاشياء استئصال جذوره ولا ندري السر في هذا . ولكن انظر الى هذه الجماعة القليلة كيف أقامت لها شأناً رفيعاً في العرب كلهم اذ غلبتهم على التوطن في جوار البيت المشرّف وأحسنت المقام في هذا الجوار الشريف فقامت بحقوق حجاجه من سقايتهم ورفادتهم ، وقامت بحقوق المستضعفين فيه من حمايتهم وتأمينهم ، وقامت بسنن التضامن والتعاون والتواصي بالعدل والاحسان حتى رضي العرب بتقديمهم عليهم اذا تقدموا واياهم لأمر عظيم وشرف جسيم على انهم ليسوا في العرب أكثر عدداً ، ولا أقوى ناصراً . لا جرم قد خصهم الله بأفراد كانوا في نقاء القلوب آية ، وبلغوا في صفاء العقول الغاية ، والأمم والشعوب تحيي بأفراد وتموت بأفراد

واذا سخر الاله سعيداً　　لاناس فانهم سعداء

ومما هو جدير بالذكر في هذا الصدد حريتهم التي كانوا عليها فانهم لما خلصوا من تمليك أحد عليهم خلصوا من شرور كثيرة تتبع التمليك فكانت معاشراتهم ساذجةً خالية من عبارات الملق والخنوع وكانت مكاسبهم لا تقسمهم لا يشاركهم فيها مشارك ولا يعرفون المغارم المرتبة والاتاوات المضروبة

وهم في أمن من حيف القضاة لانهم انما يتحاكمون يوم يشاءون الى من يرضونه من كبرائهم ولا قانون لهم في المسائل الجزئية ترتعد من أحكامه فرائضهم وانما يخشون بأس بعضهم فيرتدعون عن الشر الذي يثأر له العموم أو يثأر له من أصابهم خاصةً

وكان جائزاً لا حدهم ان يتدين كما يريد بشرط ان لا يعيب دينهم الذي كانوا عليه ولا يدعو الى ابطاله وقد كان لبعضهم فلسفة فى النشور والجزاء الأخروي ولبعضهم انصراف عن عبادة الاوثان ولبعضهم ميل الى تقليد أهل الكتاب فلم يكونوا يحاسبون أحداً على مثل هذا

ولم يكن لديهم نوع من المبايعات حراماً بل يبيعون ويشترون كما يشاءون وكل منهم عارف بمصلحته ولهم همة فى التجارة والرحلة فيها الى الشأم وغيرها فى الصيف والشتاء

أما أهل الصنعة فيهم فلم يكن لهم من قيمة والغالب ان يكون الصناع غرباء

ولهم ازاء حسنة الحرية سيئة كبيرة وهي امتهان الرقيق واحتقاره وتكليفه الشاق من الامور ولم يكن بعضهم يأنف من إكراه امائه على البغاء ليأخذ ما يعطين في سبيله

أما نساؤهم الحرائر فلم يكن جائزاً لهن الزنا ولا سيما اذا كان لهن بعولة بيد انه لم ينقل لنا انهم رتبوا على الزواني عقاباً بل كان عقابهن الى رأي أهليهن اذا شاءوا

وكان لنسائهم كثير من الحقوق ولهنّ ان يواجهن الرجال ويبرزن أمامهم حاسرات ويمكن ان يقال بالاجمال ان حرية الرجال والنساء كانت تامة ولذلك نعجب من قوم هذا شأنهم اذا رأيناهم لم يرثوا لحال الرقيق ولم يذكروا انه يستحق الرحمة لانه مسلوب أفضل كساء كساهموه ربهم الأعلى، الذي خلق فسوّى،